وفاء الجن

-وقصص أخرى-

رمضان سلمي برقي

دار دريم بن للطباعة والنشر
العنوان: مدينة العبور – الحي السادس، فيلا 8، مدخل 1
هاتف: 1003288596 (0020)
بريد إلكتروني: dream.pen92@gmail.com

وفاء الجن
(وقصص أخرى)

رمضان سلمي برقي
الطبعة الأولى، القاهرة 2020م
غلاف: عمار جمال العبد
مراجعة لغوية: فريق دريم بن
تنسيق وإخراج داخلي: لخضر بن الزهرة
رقم الإيداع: 20318 / 2020
I.S.B.N | 978-977-6794-52-8

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًّا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطيٍّ من الدار.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، و لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار النشر.

رمضان سلمي برقي

وفاء الجن

-وقصص أخرى-

دريم بن
للترجمة والنشر والتوزيع والطباعة

وفاء الجن

(رواية قصيرة)

ربما بكتابتي لتلك الرواية، عاديتُ كثيرًا من الجن دون أن أدري؛ لذلك سأهدي هذه الرواية لهم، لعلَّهم لا يغضبون.

رمضان سلمي برقي

القرية قبل عامين

من بين ديار القرية الطينيّة، وأخرى مبنيّة من الطوب الحجري، ذوو الطابق والاثنين والثلاثة، وفي هدوء القيلولة، يركض لاهثًا كلبٌ أسودٌ ضئيلُ الحجم بين طرقاتها، قابضًا بين فكيه على دجاجة ثمينة نافقة، يصل بعد لأي إلى حافة تُرعة القرية الكبيرة، التي تحاذيها نباتات الحلف، ومن خلفها حقولُ الذرة الطويلة، فيقف شاخصًا إليهم للحظات، فيرونه من فوق ربوة صغيرة، فيسيل لعابهم.

يتجمّع بالأعلى سلة من كلاب الشوارع الملطّخة بالوحل، تتهارش مع بعضها البعض، يصعد إليهم الكلبُ الأسودُ، فيختطفون منه الدجاجة، ويتنازعونها فيما بينهم مزمجرين ونابحين، منهم من يفز بقطعة كبيرة، ومنهم من لا يفوز إلا بخردلة.

وفجأة، ينبثق وسطهم من اللاشيء رجلٌ تدل هيأتُه على كِبر سنه، تختفي ملامحُ وجهه خلف طبقات من الوحل، عاريًا إلا من خرقة قماش بالية تستر عورته، شعره مُلبّك من الأوساخ، يئن أنينًا خابيًا خلف عجزه عن الكلام والحركة.

تنتفض الكلاب مذعورة، تاركة بقايا الدجاجة، هاربة في كل الاتجاهات، يفتح الرجل عينيه، يحرّك كفهُ ببطء باحثًا عن شيء،

فتصطدم ببقايا الدجاجة الهالكة، يختطفها صوبُ فمه، ثم يمزقها بين أنيابه بشراهة رجل حُرم من الطعام لسنوات.

من مقربة منه، يظهر رجلٌ يبد في جلبابه هزيل الجسم، تفر الكلاب من حوله، يتوكأ على عصاه، مارًا بحافة التُرعة، تتناهى لأذنيه أنّات وجع من بين ربوات الحافة المُحاطة بالحلف، فيتقدّم نحوها مُسرعًا، فيجد الرجل العاري.

– لاحول ولا قوة إلا بالله، من هذا؟

يقلّب في الرجل مُتمتِمًا بها، ثم يزيل الوحل عن وجهه، والآخر مُستسلم، يحاول الكلام أو الاستغاثة فلا يستطيع، وفمه ممتلئ بالريش والقذارة.

– راشد، أمعقول هو أنت؟ أين كنت مُختفيًا طوال السنوات الماضية؟

يقولها الحاج «صالح» مذهولًا وغير مُصدِّقٍ.

1

الوقت الحالي

في محطّة مصر، الساعة الكبيرة المعلَّقة بأحد أعمدة الرصيف «إحدى عشر» تقترب عقاربها من الثانية عشرة صباحًا.

يلج القطارُ الرصيف، ينفخ بوقه فتهتز قلوبُ منتظريه، وينتفض الجميع بحقائبهم وأمتعتهم، يهرعون لاحتلال المقاعد، بعد أن أرهقتهم ثلاجة الجو وبرودته على مصاطب الانتظار، تبدو عربات القطار الممتاز مُتربة مُعفَّرة، ومعظم زجاج نوافذه مهشَّم، هيكله الخارجي الأزرق قد دبق وتآكل من الصدأ.

يقفِزُ شابٌ حاملًا حقيبته السوداء على كتفه، يلج القطار قبل أن يتحرَّك بدقائق، يدلف بالطرقة يبحث عن مقعد مناسبٍ بجانب نافذة زجاجها سليم، ولمَّا يجده يخلع حقيبته، يضعها على الرف المعدني بالأعلى ويقعد، كانت الثلاثة مقاعد من حوله شاغرة: «الحمد لله ليس هناك ازدحام، إن الشتاء هذا العام صعبٌ».

من مقربة، يبدو أنه يقترب من الخمسة والعشرين من عمره، عيناه سوداوان، قمحي البشرة، معتدل القامة، عريض الصدر، يرتدي بنطالًا «جينز» أزرق، ومِعطفًا أسودَ، وقد دَفَنَ رأسه بداخل برنسه تجنبًا للبرد، يتحرَّك القطار، وسرعان ما تتقهقر أنوارُ

الرصيف، ويحلّ الظلام ضيفًا، بعد نصف الساعة تنبعث أنوار القطار البيضاء بوهن من سقفه؛ تنبجس باستحياء من مصابيح متهالكة، تتقطَّع حينًا وتستمر حينًا.

يشعل لفافة تبغ، يخرج هاتفه اللوحي، يلمس عدَّة قوائم حتى تظهرَ صورة لوجه فتاة، يسود الصمت إلا من ضجيج احتكاك الدواليب بالقضبان، وأزيز المكابح عند توقف القطار بالمحطَّات، التي لا ينزل إليها أو يركب منها سوى شخص أو اثنين؛ لا يلقي بالًا لذلك، يلقي بثقلِ بصره إلى الصورة؛ وجهها أبيضٌ وضاءٌ، يعلوه هلالي حاجبيها المرسومين بحرفيّة طبيعيّة، وأسفلهما عينان سوداويان واسعتان، ينسدل من بينهما أنف لا هو صغير ولا هو كبير، وفي نهايته شفتان عنابيتان، وتلف رأسها بطرحة سوداء؛ لم تمنع تدلّي خُصلة شعر سوداء ناعمة فوق خدها الأسيل بتأن.

يقرّب الصورة بإصبعيه، فتتجلى عيناها، يسحب نَفَس دخان عميق من لفافته، تتطاير الأدخنة من فمه إلى أعلى، يزفر بضيق: ابنة عمي الغالية، ماذا دهاكِ؟ كيف تفسدين مستقبلنا ولأي سبب نكثتِ خطبتنا ونقضتِ عهودنا؟ تعلمين جيدًا أني أحبكِ، وأنا أعلم حق اليقين أنكِ تحبينني، إذا ما الذي جدّ وطرأ كي تهدمين كل شيء بين ليلة وضحاها؟ أموت وأعرف ما كنهه السبب الذي جعلكِ تقررين الرحيل عني؟

يغلق هاتفه، يعيده لجيبه، يُلمْلِم تلابيب معطفه جيدًا، يدفن كفيه بجيوبه، وينكَمش بزاوية المقعد متأملًا الضباب الغارق في الظلام خارج زجاج النافذة؛ الظلام الذي تتناثر به عدة نقاطٍ مضيئة بعيدة، سرعان ما تهرب مذعورة إلى الخلف، لتحل محلها

نقاط أخرى؛ ربما أشد وهجًا وربما أوهن، مثل لحظات السعادة التي يقضيها ما دامت «دعاء» معه، لا يريد لأي شيء أن يحل محلها، أن يطردها من حياته.

«دعاء» بالنسبة إليه حورية؛ طالما هي معه، تطل على حياته، تضيئها بحب لا يفتر أبدًا؛ فهو مطمئن، لقد تربيا معًا وعاشا اللحظات حلوها ومرها معًا؛ جل فتيات القرية كنّ يعلمن قدر عشقها له، وجل شباب القرية كانوا يعلمون قدر عشقه لها، لم يبُح يومًا لأحدهم، لكنه إناء العشق الذي نضح بما فيه.

كانا جالسين معًا وقت الغروب فوق جذع النخلة اليابس المسجى خلف داره، وقتذاك؛ كانت الشمس تتجهّز للرحيل على مضض خلف أكمة النخيل البعيدة، بعد أن زركشت السماء بالشفق.

– الشمس ستغرب يا «دعاء».

يقولها فتستحِ وتُطرق رأسها فيضحك، ويمسك بكلتا كفيها الناعمتين ويلثمهما، ثم يلثم خداها، ويختطف رأسها إلى صدره، إلى منبتها الذي خلقت منه، دائمًا ما يشعر وهو معها أنه آدم، وهي حواؤه؛ التي انفصلتْ قديمًا ليس عن ضلع أعوج؛ بل من شِغاف قلبه، عندئذ؛ تتململ دعاء، وتتفلتْ منه وتهب واقفة، وتنظر إلى الشمس، تقول مبتسمة:

– الشمس غربَت يا «ياسين» ويحر بي أن أغرب أنا أيضًا؛ حتى لا يرانا أحدٌ من شبابيك البيت نتناغى، ويمنعوننا من الجلوس معًا مرة أخرى.

ثم تجري كماءٍ عذب بين حقول القمح الخضراء في جلبابها الأصفر المزركش بالورود؛ كأنها الشمس تغرب عن أرضه وسط جنة خضراء.

«ياسين» مات أبوه لمّا كان وحيدًا صغيرًا، وترك له ولأمه أرضًا؛ قام بإيجارها ويعيشان من ريعها، أمّا دعاء؛ ابنة عمه الوحيدة أيضًا، فعمرها ثمانية عشر عامًا؛ اكتفَتْ بدبلوم؛ حالها كباقي فتيات القرية؛ تنتظر زواجها من ياسين، فقد تبقَّتْ له سنة دراسية واحدة بالجامعة ويتخرَّج، وبعدها يتزوَّج منها، ولكن لا يدري ما الذي حَمَل عمه على الاتصال به، ليبلغه بأن دعاء قرَّرتْ نكث الخطوبة التي استمرَّتْ ثلاث سنوات، ضجر من داخله: «حتى هاتفها مُغلق، ما عدتُ أفهم شيئًا».

يدق جرسُ هاتفه اللوحي برنين عادي، فينظر إلى شاشته بلهفة:

– مرحبًا عمي «صالح».

يجيب المتصل بصوت شجي.

– كيف حالك يا بن أخي؟

– أنا بخير، لقد ركبتُ قطار الثانية عشرة وقادم إليكم لننظر سويًا في أمر خطبتي من دعاء، وتداعيات قراركم المفاجئ عليَّ.

يتنهَّد عمه:

– ياسين.

– نعم يا عمي؟

– هنالك شخص غيرك يعشق دعاء.

ينتفض ياسين واقفًا، وبحنق يصيح:

– ما هذا الهراء يا عمي؟ أنا ابن أخيك وأنت تعلم قدر معزتي لها.

يلتفت إليه بعض الركَّاب من رجال معمَّمين ونسوة ملفوفات بالسواد باستغراب؛ يحدِّجهم، فيعودون بأبصارهم حيث كانت.

– يا ياسين لن أستطيع منعها منه، لقد هدّدنا بقتلها أو خطفها إن لم نوافق.

– عمي ماذا تقول؟ نحن عائلة لها ثِقلها ولا يجرأ أحدًا أن يفعل معنا ما قلته؛ أقسمُ بالله أن أُفرغ ألف رصاصة من بندقيتي الآليّة في جسده، وأظل واقفًا فوق رأسه؛ حتى يتعفّن أو تأكله الكلاب، ولو...

يقاطعه عمه بلهجة مُستسلمة:

– لن يؤثر به رصاصي أو رصاصك، قضي الأمر يا ياسين.

–إيه؟ ماذا تقول يا عمي؟ كيف لن يؤثر فيه الرصاص، أهو حديد؟

يصمت عمه لحظات، يسأله ياسين:

– من هو يا عمي أجبني أرجوك؟ من أي عائلة هذا الشيء؟

– إنه...

– إنه ماذا؟ ما كنهه ذاك المثكولة أمه؟

– جني يا ولدي، ملك من ملوك الجان.

***

يقترب القطار من محطَّته المنشودة مع اقتراب أذان الفجر، يتوغّل جنوبًا بين محافظات الصعيد، يقعد ياسين مكفَهِّر الوجه، يستعيد بتأفف وقلق ما أخبره به عمه صالح؛ عن عاشق دعاء من الجن، لا يصدِّق، ولم يصدِّق يومًا ما بمثل تلك الخرافات...

سمع كثيرًا عن فتيات أُختطفن من قريته، ومن قرًى مجاورة، واتُهم الجن فيها زورًا؛ ورجال أيضًا، هو واقعي؛ كان دائمًا يوجد أسبابًا لكبح جماح عقله؛ حتى لا يشرد منه، ويصدق مثل تلك الترهات.

قال ياسين ذات مرة لصديقيه «عامر» و«مصطفى» عندما كانوا يقعدون ثلاثتهم؛ على شاطئ التُرعة، عندما سَرَدَ عامر له قصة عن اختفاء فتاة من أكبر عائلات القرية: «ربما كانت على علاقة محرَّمة مع شاب وهتك عرضها، ولمَّا اكتشَفَ أهلها ذلك؛ قتلوها واصطنعوا تلك الإشاعة لسبر أغوار سمعتهم من الفضائح والعار».

مصطفى جارهم؛ لكنّه لم يكن يحب تلك الحكايات، ولا يجالسهم كثيرًا، أمّا ياسين كان لا يسمح لخياله أن يفارقه إلى منطقة يجهلها؛ وخاصة فإن حكايات صديقه عامر، وحكايات أهل القرية عن المناطق التي يجهلها كثيرة، تارة «وادي الجنْ» الذي يقولون إنّه بالجبل الشرقي للقرية، وكل من يمر به يختفي، ياسين نفسه ذهب

إليه ذات مرة نهارًا ولم يحدث له شيئًا، وتارة عن اختفاء جميلات القرية، يزفر ياسين ضيقًا، وبصوتٍ محشرج؛ يتمتم:

– إن ثبتت حقيقة ما حدَث؛ فقرار دعاء بالرحيل عنّي؛ عن غير رضاها، وربما عند وصولي يجدّ جديد.

يُخرج هاتفه، يفتح الاتصال بشبكة الإنترنت، يكتب في خانة البحث: «عاشق من الجن»، ثم يفتِّش بين نتائج البحث، حتى يلفت نظره ذلك العنوان: «عاشق من الجحيم» فيلج تلك الصفحة:

– قصة، لا توجد حقائق.

يزفر بها، يتصفَّح القصة سريعًا، فيجد من بين سطورها؛ أن الجني يضاجع الإنسيّة رغمًا عنها.

– كذب، هراء.

يتخيّل لوهلة؛ أن دعاء في أحضان ذلك الجني، تصيبه رجفة، يغلق الهاتف بعد أن صار مذهولًا مشوشًا خائفًا على دعاء: ماذا لو كان الخبر حقيقة؟ ماذا عساي أن أفعل لذلك الجني؟ تنتابه لحظات شرود؛ يقطعها نداء جلده الذي اقشعرّ فجأة، وإحساس بأن هناك عينًا ما تراقبه، يشعر بازدياد واضح في خفقان قلبه، وانتصاب شعر رأسه:

– أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم.

يزدرد ريقه، يتمالك نفسه، ويهّب واقفًا، ينظر حوله مُطوّقًا العربة بعينيه، فيجدها شبه خالية من الركاب، والموجودون كلهم نائمون؛ يهم بالجلوس مرة أخرى؛ فيلمح بطرف عينه شخصًا

متشحًا بالسواد؛ واقفًا بالدهليز المظلم بين العربتين؛ يحملق إليه بعينين واسعتين متوهجتين؛ هما أوضح ما يظهر منه، تمرق ببدنه من أخمص قدميه حتى شَعر رأسه قشعريرة شديدة؛ تُفتِّت كل قواه؛ فيتهالك على المقعد خائرَ القوى؛ لا يستطيع تحريك إصبع منه، وكأنه كُبِّل بقيود متينة خفيّة.

يحاول قراءة آيات، أو أدعية؛

لكن لا فائدة؛ عُقد لسانه.

«الله أكبر الله أكبر...»

يتسلّل أذان الفجر إلى أذن ياسين من مساجد بعيدة عن القطار، فيتململ في قعدته، يتسلّل أذان آخر أقرب وأوضح؛ فينتفض ياسين واقفًا، ومحطِّمًا كل القيود الخفيّة التي كانت تكبِّله؛ ويلتقط أنفاسه مرددًا:

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

تنتابه لحظات صمتٍ مبهم، لا يعرف ما كنه ما حدث له آنفًا، يتلفّتْ حوله من جديد، ويرسل بصره إلى الدهليز؛ فلا يجد شيئًا؛ يقعد من جديد، يمر الوقت، تقترب الساعة من السادسة صباحًا، يمر بائع الشاي، يشترى قدحًا، ثم يشعل لفافة تبغ.

– سأحاربه بالإيمان.

يقولها ممتعضًا والدخان يتطاير من فيه، ثم يلتزم الصمت.

***

بعد مرور الساعة؛ يتوقَّف القطار بالمحطة؛ يقفز ياسين، ويقف على الرصيف، يتأمّله فيجده شبه خالٍ من المسافرين، والمصاطب غارقة بين طبقات الضباب، يخرج نظارة سوداء من الحقيبة، يلبسها ليداري احمرار من عينيه من الغضب، ومن مجافاة النوم طيلة الليلة المنقضية بالقطار.

يدلف صوب نفق الخروج، فيتحرَّك القطار من خلفه؛ ينزل إلى النفق الخالي مثل الرصيف من المُسافرين، لحظات ويخرج صوب البوّابة الأمنيّة، يهم بإنزال حقيبته ليفتشها رهط من رجال الشرطة المدثرون بالمعاطف الثقيلة؛ فيشيرون إليه بأن يكمل طريقه.

أمام المحطّة؛ لا توجد سوى دورية الحراسة؛ خمس أفراد ومُدرّعة؛ يُلقي السلام عليهم، فيردّوه، ثم يلوّح للحافلة التي ستنقله إلى موقف السيارات حيث سيارات قريته.

تنطلق سيارة قريته تشق طريقها بين حقولِ القمح الخضراء، وأشجار النخيل السامق؛ تجتاز الجسور فوق الترع، وتشق الضبابَ القابع على بعض الطرقات، تتمهَّل أحيانًا لضعف الرؤية، وتسرع أحيانًا، ياسين يلتزم مقعده بجوار النافذة صامتًا وحقيبته فوق حجره، لم يتأمَّل كعادته الحقول والنخيل بشغف خارج زجاج السيارة، بل يتأمّل صورة دعاء التي يراها في انعكاسات كل شيء خارج النافذة.

2

– حمدًا لله على سلامتك يا ولدي.

تقولها «فاطمة» أم ياسين، بعدما تفتح له الباب، وتُدثره بأحضانها لحظات، وبعدما تنفك عنه، وعن مقربة؛ تبدو للناظر امرأة في العقد الخامس من العمر؛ ريّانة الوجه، وإن طالته بعض تجاعيد الكبر، متشحة بجلباب أسود، تلفُ رأسها بشال أزرق؛ تطل من أسفله خصلات شعر تمكّن الشيب منها فكساها ببياضه.

– ماذا حدث لدعاء يا أمي؟

ترمقه بنظرة حزينة:

– اِلتقط أنفاسك أولًا من مشقّة السفر، واقعد يا ولدي.

يخلع حقيبته، يخلع حذاءه ونظارته، ثم يتربَّع على الدكّة بباحة البيت قائلًا:

– لم تعد بي أنفاسٌ يا أمي، أنت تعلمين قدر معزتي لها، وما سمعته عنها قضّ مضاجعي.

تدخل أمه المطبخ، تضيء المصباح، تصيح:

– أبعَدَ الله عنك الغم والهم يا ولدي، إن شاء الله سيفرجها ربك من عنده ويفك الكرب.

– لم تجاوبيني عن سؤالي.

– أُجهّز لك لقمة تقوّت بها بدنك أولًا وبعد ذلك سأحكِ لك عن كل ما أعرفه.

يزفر ياسين بشرود:

– سلمت يداكِ يا أماه.

***

بعد أن يتناول طعامه، يخضع لدشًّا ساخنًا؛ ثم يرتدي جلبابه، ويدخل إلى غرفته، يمدِّد جسمه فوق السرير، يطرح قُذاله فوق الوسادة، يتدثَّر باللحاف، يثبّتْ نظرَه صوب السقف شاردًا: «وهل سيغمض لي جفن يا أمي دون أن أطمئن عليها»؟

ثم تدمع عيناه شوقًا؛ يتذكَّر كلام أُمه:

«دعاء عشقها جنيّ يا ياسين وتلبّسها، وأتوا لها بمعالجين ورقاة وأحدًا لم يستطع إخراجه وإبعاده عنها».

يزفر ضجرًا: «مسكينة يا دعاء وكذلك أنا».

لمّا قال لأمه أنه يريد أن يذهب الآن إلى دار عمِّه صالح؛ أجابته بوجه قد نقأ قلقًا: «دعاء في غرفة منعزلة، وممنوع دخولها لأي شخص، خصوصًا أنت؛ لا يدخل إليها سوى أمها، فقد تم تحصينها وقراءة الحرز عليها». وقالت له أيضًا: «قريبًا سيأتي شيخ من القاهرة، يقولون أنه بارع، وربنا يجعل الشفاء على يديه».

يتقلّب ياسين على جنبيه؛ وكأنما يتقلب فوق رمال صحراء مُلتهبة: «يا رب.. يا أماه»، ولكنه يعود ليركّز على جملة من كلام أمه

متسائلًا: «لماذا أنا بالذات اختصوني بالبعد عنها؟ هل الجن يغار مني؟ ولكن هي حبيبتي أنا، أنا الخليق بالغيرة والجزع»، يصمت لحظات، ثم ينطق فجأة:

– ما هذه الخرافات؟

يدخل في صراع مع الشرود والتفكير والحيرة؛ يراود النوم عن نفسه فيأبى، وبعد ساعتين ينغمس في النوم رغمًا عنه، ورغمًا عن النوم ذاته.

***

وسط طبقات ظلام متراكبة؛ يركض ياسين لاهثًا بمنامته صوب دار عمه صالح، فوق طريق ترابي مجدور بحفر ملأها ماء يتطاير من أسفل قدميه، تلوح الدار من بعيد كسفينة تغرق في موج ظلام هائج، ولمّا يصل إلى الدار؛ تبدو له مشيّدة من طابقين من الآجر، متطرِّفة بين الحقول، ومحفوفة بسور قصير من الطوب النيء؛ الذي تتحلَّقه أشجار النبق، ينادى ياسين بصوت متهدِّج من البرودة والتعب:

– يا عم صالح.

يعيد النداء غير مرّة دونما إجابة، هزيز ريح ينطلق فجأة ليدغدغ سكينة الليل، حفيف أشجار النبق يشعر بأنه فحيح أفاعي، نقيق الضفادع وصرير جراد الحقول يزدادان ويتضخّمان وكأن جيوشًا منهما احتلت القرية.

يقترب من البوابة الخشبيّة الكبيرة؛ يهم بطرقها، فيجدها مفتوحة: كيف يتركون بوابة الفناء مفتوحة دونما مزلاجًا في ساعة متأخرة كهذه؟ يتساءل بها في نفسه، ثم يدلف إلى الفناء، يصل باب الدار؛ يجده مفتوحًا أيضًا؛ فيلج باحة الدار، يجدها مظلمة، يضع يده في جيبه يتحسَّس الهاتف:

– نسيته بالدار.

ينطق بها نادمًا؛ ثم يخرج قدّاحة، يُشعِلها، ويبدأ في تفحُّص المكان من حوله، لحظات صمت ثم يسمع –فجأة– هسيسًا ووشوشة مُبهمة بغرفة على يمينه:

– لعلها غرفة دعاء.

يقترب من الغرفة ببطء، يدفع الباب؛ فيجده مفتوحًا؛ يدخل الغرفة، ينقطع الهسيس، وتتوقف الوشوشة؛ يتفحَّصها في نور القداحة الشاحب فيجدها شاغرة.

– كيف حدث ذلك؟ لقد سمعتُ الوشوشات بأذنيّ.

يتذكّر كلام أمه عن الجنّيّ؛ فيرتجف، يشعر بلوح جليد يتفتَّت فوق ظهره، يعود أدراجه، يخرج من الغرفة إلى باحة الدار؛ وتنطفئ القدّاحة، يتوقّف مكانه؛ يزفر ضجرًا:

– هل هذا وقته؟

يعود الهسيس وتعود الوشوشات لأذنيه تارة أخرى، لكن هذه المرة قادمة من غرفة أخرى؛ ينتفض ياسين، يقشعر جسمه، يشعل القدَّاحة مرتجفًا، يستدير، وفجأة؛ إذ بمخلوق أسود يفوقه

طولًا؛ يجده واقفًا أمامه، لا تبين منه إلا رأس ضخم كرأس غوريلا، وعينان مشقوقتان بطول الوجه بارزتين من محجريهما، وفم واسع تبرز منه أنياب طويلة كأنياب الأفعى تتصاعد منه الأبخرة.

يجفل مطلقًا صرخة خوف غريزيّة، تقع منه القدَّاحة فيخمد نورها، ويسقط على جنبه أرضًا يرتجف، وخفقات قلبه تتسارع كطلقات مدفع رشاش سريعة، يعُقد لسانه، يحاول أن يستعيذ بالله من هذا المخلوق؛ لا يستطع، يفغر فاه، ولا يقدر حتى على إغلاقه وكأن شللًا كاملًا يتمكَّن من جسده.

تمرّ عدة ثوانٍ ليسيل لعابه إلى الأرض فيصنع بركة صغيرة، وفجأة؛ تُشعل القدَّاحة من خلفه؛ يتحرّك ضوءها على الجدار صوب ياسين، ويظهر ظل يد ذات مخالب طويلة تقبضها، يتبعه ظل رأس ضخم ذا أنياب بارزة، وكلما اقترب الضوء؛ ازدادت رجفاته حتى صار كمن تمكَّن منه تيار كهربائي شديد، يتوقَّف الضوء فوق رأسه، وتتحرَّك يد سوداء ضخمة مشعرة ذات مخالب طويلة صوب رأسه، ويسمع صوتًا مُجلجِلًا:

– ياسين استيقظ يا ولدي.

ثم تنخفض حدّته رويدًا رويدًا:

– لقد أُذِّن للعصر وما زلت نائمًا، ياسين، استيقظ يا ياسين.

يقفز ياسين مستيقظًا، متفحِّصًا المكان من حوله، يغلق عينيه الحمراوين ويفتحهما، وبعد هنيهة؛ يدرك كنه ما حوله، يتمتم:

– إذًا فهو كابوس.

يجد باب غرفته مفتوحًا، يصيح:

– اِستيقظتُ يا أمي.

***

يُطرق الباب بطرقات متواترة، فتفتح أم ياسين على عَجَل.

– حمدًا لله على سلامتك يا صديقي.

يقولها –بعد دخوله– شابٌ اجتاز العشرين من عمره؛ قصير القامة، ممتلئ الجسم، ريان الوجه؛ يرتدي جلبابًا فضفاضًا، يقعد ياسين على الدّكّة بباحة الدار مرتديًا جلبابه، ومشعلًا سيجارته؛ يدخنها شارد الذهن، ولمَّا يراه يهبط أرضًا، ويبتسم محيِّيًا:

– عامر، اشتقتُ لك يا صديقي.

ويختطفه بين ذراعيه.

***

يدخل الصديقان إلى مسجد صغير على حافة الطريق؛ مكلَّسة جدرانه من الخارج، وتعلوه قبّة خضراء وبلا مآذن، يدخلا المصلى الشاغر من المُصلّين ذي الجدران المطليّة باللون الأبيض، وأرضيّته المفروشة بالبسط الخضراء، ومنبره الخشبي بنيّ اللون، قد انقَضَتْ صلاة الجماعة آنفًا، يقفا بجوار بعضهما البعض في خشوع بين عمودي المسجد المتباعدين، زقزقة الزرازير المتشبثة بقضبان الشبابيك يتردد صداها بالداخل؛ يرفع عامر كفيه بمحاذاة أذنيه:

– الله أكبر.

ينوي بها الصلاة، مُصارعًا أفكاره ما بين الانشغال بدعاء، والخشوع لربه، وفي سجدته يخشع، ويدعو الله:

– اللهم ارفع البلاء عن ابنة عمي، وأتمَّ زواجنا بخير.

***

يجتاز الصديقان القنطرة الخرسانيّة ذات الأقواس؛ المشيَّدة فوق التُرعة الكبيرة؛ التي تقسم القرية إلى شطرين، يقعدا جوار بعضهما البعض فوق جذع نخلة يابِس مسجى على حافة التُرعة، يتأمَّل ياسين المارة في جلابيبهم الفضفاضة، والدواب المحمَّلة بالحشائش على حافة التُرعة المقابلة شاردًا، ومن خلفهما طريق ترابي، ومن خلفه حقول قمح شاسعة؛ تتناثر خلالها البيوت بعشوائية.

يبدأ عامر بثرثراته عن أحوال القرية، وما حدث بها طوال فترة غياب ياسين الأخيرة عنها، ولمّا يلاحظ أن ياسين غير منتبه؛ يقول:

– افتقدنا دخانك يا صديق.

لا يجب ياسين بحرف؛ يضع عامر يده على كتفه صائحًا:

– ياسين.

يفيق على إثرها ياسين من شروده، ويبتسم له بتجهُّم، فينزل عامر يده:

– أشعِل لنا لفافتي تبغ من سجائر مصر.

ولمّا يتطاير الدخان من حولهما، يقول ياسين بمرارة:

– ما الحل يا صاح؟

يشيح عامر بوجهه صوب أقواس القنطرة يتأمّلها قائلًا بهدوء:

– إن شاء الله سنجدُ حلًا، أنا لديّ خلفيّة معلوماتيّة ما في التعامل مع الجان؛ لا تعدو كونها بعض الكتب المتداولة، لكن العارض الذي أصاب دعاء قويًّا جدًا وابن ملوكٍ.

يرمقه ياسين بنظرات مُتعجّبة:

– هل هناك فرق بين جنيّ عادي وآخر ابن ملوك؟ وكيف عَرَفت هذه المعلومة؟ لقد حكَت لي أمي عمّا تعرفه، لكنها لم تذكر لي تلك التفصيلة.

يعود عامر بوجهه إلى ياسين:

– خالتي فاطمة؛ لا تجد شغفًا في أن تخوض في مثل تلك الأحاديث، أمّا أنا فقد عرفتُ من بيت عمك، ومن بعض أهل القرية؛ لا شيءَ يخفى هنا يا صاح، الثرثرة سمة القرية، وخاصة إن كانت أمور خارقة، فتظل فرصة للجميع، كل شخص يدلي بدلوه وينقص ويزيد أنى شاء.

ثم يتوقّف عامر عن الكلام، ينظر أمامه صامتًا، وعينا ياسين تائهتين في كل مكان، وفجأة؛ يضيف عامر:

– هناك فرق كبير ما بين الجنيّ العادي وما بين الملوك وأبنائها الذين تحت أيديهم آلافًا مؤلّفة من قبائل الجِنّ؛ ينصاعون لأوامرهم، المُهم؛ يقولون إنّ الشيخ القادم من «القاهرة» اليوم؛ خبير مُتمرّس، وتحت يده كتائب جن أقوياء؛ مُسخّرين لطاعته.

يقاطعه ياسين بيده، ويحدِّجه بوجه منقبض:

– رويدك عليّ يا عامر؛ أليس تسخير الجان هذا سِحر؟

– لا أعلم، ولكنه لا يعمل إلا في الخير وعلاج البشر المتضررين من شياطين الجن الأشرار، كما يقولون عنه.

– وهل هذا يحل له أن يُسَخِّر الجان؟

يبتسم عامر قائلًا:

– في جسدِ المرأة عورات لا بد من سترها، بيد أنها تتعرَّى أمام الطبيب للعلاج، ولدَفع المضرة «الضرورات تُبيح المحظورات» يا صديقي.

– لا تفتِ أرجوك يا عامر، فأنت أيضًا لا بد أن تتوقَّف عن قراءة تلك الكتب.

– لن أتوقَّف يا صديقي؛ فلديّ شغفٌ للتعرّف بعالم الجن؛ ذلك اللغز المُحيِّر للبشر، تلك المخلوقات الخفيّة –يا صديقي– علومها محيِّرة، فتكفيك أعوامٌ كبشريّ؛ لتتفكَّر في كيفيّة تلبُّس الجان للبشر؛ ستتساءل غير مُصدِّقٍ: «كيف يتحكّمون فيمن يتلبّسونه؛ هل يسيطرون على جسده، أم عقله، أم روحه؛ أم الثلاثة»؟

يشعر ياسين بالقلق من تساؤلات عامر...

يتقلّب في أفكاره: «أقلّها؛ أحمِد الله أنهم لا يسيطرون على القلوب». يطمئن بها نفسه، ثم يقول لعامر:

– لا أريد أن أعرف، لك ما شئت يا صديقي، فكل ما أتمنّاه الآن شفاء دعاء –ثم مستطردًا– صحيح؛ لقد رأيتُ كابوسًا مُخيفًا ذلك الصباح.

– احكه.

يسرد ياسين الكابوس كاملًا، وما إن ينتهي يقف عامر قائلًا:

– هيا لنذهب إلى دار عمّك صالح.

ينهَض ياسين مستجمّعًا تلابيب جلبابه وذيوله:

– ألن تقول لي ما معناه يا خبير العوالم الخفيّة؟

يسبقه عامر متمتمًا:

– أأكذُب عليك وأقول أني أُفسِّر الأحلام؟ ولكنه خير إن شاء الله.

***

يصل الصديقان إلى دار الحاج صالح، الشمس تتوارى خلف شفق الغروب هنالك بين أكمّة النخيل، يطرق ياسين البوّابة، يفتح لهم الحاج صالح؛ يتأمله ياسين فيشعر وكأنه كبر عشرات السنين، بيد أنه بالعقد الخامس، كث اللحية بيضائها، جَعِد الوجه، أصلعُ الرأس، هزيل الجسم، متوسط القامة؛ يرتدي جلبابًا مُحكمًا على جسمه النحيف.

يسلِّم عليه ويطيلان العناق وتلمع أعينهما بدمعاتٍ لا تسقط، ثم يسلِّم على عامر، ومن ثمّ يدلفون إلى الفِناء تاركين البوابة مفتوحة.

ولمّا يصلوا إلى المنظرة؛ يدخلونها جميعًا، المنظرة غرفة كبيرة عن يمين الدار؛ لها بابٌ على الفناء مفتوحًا وبابٌ صغير موصد مفضٍ إلى داخل الدار، يقعدون، يقول الحاج صالح بلهجة يشوبها الهُزال:

– كيف تسير أمور دراستك يا ياسين؟

ياسين شاردًا ينظر إلى الباب الصغير المؤدي إلى داخل الدار تارة، وإلى الباب الخارجي تارة أخرى، فيعيد عمه عليه السؤال فينتبه مُجيبًا بصوت شارد:

– الحمدُ لله.

– أدام الله حمدك يا ابن أخي.

ثم يطرق ياسين رأسه قليلًا ويرفعها قائلًا:

– أريد أن أرى دعاء يا عم أرجوك.

يهَت وجه عمِّه فينظر إلى عامر، ثم ينظر إلى ياسين تارة أخرى، وتلمع بعينيه الدموع، يقول:

– الحقيقة يا بني هي في غرفة منعزلة لا أحد يدخلها سوى أمها.

فجأة؛ يُصفق باب المنظرة الخارجي فيُغلَق وتُظلم المنظرة، ويتحرَّك مزلاج الباب الصغير الداخلي ويُفتح دون أن يظهر أحدًا، ويسود الصمت والذهول مما يحدث.

ينتفض عامر واقفًا:

– إنهم الجن قد حضروا، أنا أشعر بهم.

يسقط ياسين أرضًا، يرتجف، تصطك أسنانه ويرتعش جفناه، وصالح جالس جاحظ العينين نائمًا لا يعي الواقع من حوله، لحظات ويسُمع هسيسًا قادمًا من الداخل؛ يقترب عامر من ياسين؛ ينزل على ركبتيه؛ يضع يده على جبينه ثم يشرع في غمغمة، ويسَمع وقع أقدام آتية من داخل الدار صوب الباب الصغير، فيجتهَد بالقراءة فيبدأ ياسين في الاستفاقة رويدًا رويدًا، ويقترب وقع الأقدام أكثر فأكثر، وعندما يقترب عامر من الانتهاء؛ يُسمع صرير الباب الصغير الذي ما فتأ أن يتأرجح كأن يدًا تقبضه من الداخل وتتلاعب به، فانتهى من القراءة، واستفاق ياسين؛ وقتئذ يصمت صرير الباب.

ينهض ياسين بثقل، ولا يزال عمه كالمنوم، وفجأة.. يتوقّف الهسيس، يُسمع صرير الباب، ينظر ياسين صوبه، فيجدها دعاء تنبلج من خلفه، يراها ياسين واقفة صامتة لا تتحدَّث، مرتدية عباءتها السوداء الفضفاضة، وشعرها دونما غطاء مبعثر فوق وجهها الشاحب وكتفيها كالموج الهائج، تلين تقاسيم ياسين لرؤيتها؛ يتحرَّك ناحيتها، تمد إليه يديها في صمت مصوّبة عينيها الجاحظتين إليه في سكون جثّة، وما إن يقترب منها إلا ويصرخ به عامر:

– توقَّف ماذا تفعل؟

يتوقّف ياسين مُستديرًا؛ يحدِّج عامر باستغراب:

– ما بالك يا عامر ألا ترى دعاء؛ ها قد جاءت بنفسها لتسلِّم عليّ.

– أنا لا أرى أحدًا؛ توقَّف ولا تلامس من تظنها دعاء، إنها من الجن، لا تقترب منها حتى لا تهلك.

يتعجَّب ياسين من قول عامر، يقول مُتهكِّمًا:

– سلامة نظرك يا عامر إنها دعاء، لا بد أن كتب السحر والجن أتلفَت عقلك –ثم ينظر إلى دعاء مبتسمًا– سأسلِّمُ عليها وأُقَبِّل يديها وأضمها إلى صدري لحظات قبل أن يستفيق عمي.

يتضايق عامر أكثر، ويتكدَّر وجهه صائحًا:

– ما الذي تقوله يا ياسين؟ أرجوك توقَّف أنت تحت تأثير سِحرها وهي تستقطبك إليها، توقف.

يقترب منها ياسين بعد أن يتجاهل تحذيرات صديقه؛ وما إن يصلها إلا ويهمّ بمسك يديها، فتبدأ في الذوبان في الهواء كدخان لفافة تبغ، فيجْفَل ياسين مندهشًا ويعد أدراجه ليقعد متمتمًا بشرود:

– لقد اختفت.

يلتقط عامر أنفاسه:

– هذا ما حذرتك منه، لقد أصبح بيت عمك مكتظ بالجن.

– ماذا حدث لي؟

– كانت محاولة لتلبسك ولكنها فاشلة.

يستغرب ياسين مستفسرًا:

– ولمَ فشلت؟

– ربما لأنك ما زلت مُحافظًا على وضوئك، أو ربما... لسبب آخر.

فجأة؛ ينغلق البابُ الداخلي، فيفزع الصديقان، ويُفتح الباب الخارجي، ويعود النور ليملأ المنظرة، وتُسمع همهمات تقترب.

– السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

يقولها رجلًا واقفًا بالباب من الخارج، يستفيق الحاج صالح من نومته، ينظر الجميع إلى مصدر الصوت؛ يجدوه رجلًا في العقد الخامس من العمر؛ طويل القامة، ممتلئ الجسم، يرتدي جلبابًا أسودًا، وعلى رأسه عمامة بيضاء، وعلى كتفه ملقاة عباءته البُنيّة، يتأملون وجهه الأبيض الجعد، ولحيته البيضاء المشذّبة فلا يهتدون إليه، يقترب منهم، وبيده عصا ذات مقبض مثني يتوكأ عليها، وباليد الأخرى مسبحة طويلة غليظة الحبات، يجيبونه:

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

3

يقعدون جميعًا فوق الدكك، وكلهم معلّقة أعينهم بالشيخ «طايل» الجالس بينهم في المنظرة.

– إن التي رأيتها منذ قليل يا ياسين هي «الملكة».

يتعجَّب ياسين من قول الشيخ طايل، فيسأله:

– ملكة ماذا تلك يا شيخ؟

يوزّع الشيخ طايل نظره بين الجميع بالتساوي، ويقول:

– هي ملكة قبيلة من قبائل الجن الأسود، وأم للملك الذي تلبَّس دعاء، إنها رأس الفساد ولا تكل ولا تمل من إيذاء البشر، مملكتها في الجبل الشرقي بهذه القرية.

يتذكّر الحاج صالح شيئًا:

– أتعرفون؟ مذ أن كنا صغارًا كنا نسمع من الكبار؛ أن الجبل الشرقي به منطقة مسكونة تُسمى «وادي الجن» لا يستطيع البشر الاقتراب منها بعد المغرب، وكثيرًا ما سمعنا أن من يمر بها ليلًا يختفي ولا يعود، كنا نظنها أساطيرًا.

يتذكر عامر شيئًا.

يضيف:

– كنّا نلعب ونحن أطفال، واقتربتُ ذات مرة من «وادي الجن» مع حلول الظلام، فرأيتُ رجالًا ملثمين منتشرين فوق الجبل؛ فأرجفتُ خيفة، وعدتُ إلى القرية ركضًا، ولمّا حكيتُ لوالدي، نهراني وزجراني، وأمراني بعدم الذهاب ناحية الجبل الشرقي مرة أخرى.

يبتسم الشيخ طايل مُضيفًا:

– هناك كهف بالجبل الشرقي لا يفتح إلا في ليلة محاق من كل شهر عربي، هذا الكهف به القبيلة التي تحكمها تلك الملكة.

يوجِّه ياسين سؤالًا للشيخ:

– كيف عرَفتْ جل تلك المعلومات يا شيخنا؟

يبتسم الشيخ طايل:

– لقد أرسلتُ سرايا من رجالي من الجن، وأكدوا لي ما قلته لكم، ليس هذا فقط بل أزيدكم بأن تلك الملكة تعشق رجال البشر، فكلما يحلوا لها العشق؛ تعشق رجلًا وتتلبّسه، أو تعاشره؛ وتلهو به وتتمتّع به حتى تخار قواه ويصبح بلا نفع لإنسية أو جنية، وقتئذ؛ تتركه، ولكن بعد أن تُلقي عليه لعنة الجنون، هناك رجل من قريتكم كان عشيقها وهو حاليًا مجذوب طليق بين الحقول، ينام بين الكلاب الضالة ويأكل من أكلها.

يتفكر الحاج صالح مليًا فيتذكّر.

يقول:

– راشد المجذوب أجل هو ذاك؛ لقد قابلته بهيئته المشعثة المغبرة التي توحي بأنه طاعنٌ في السن، بيد أنه في الثلاثين من عمره؛

وجدته ضالًا بين الكلاب على حافة التُرعة الكبيرة منذ ما يربو عن عامين.

يبتسم الشيخ طايل:

– أصَبت يا حاج صالح، هو ذاك.

أضاف الحاج صالح:

– قالوا أيضًا إنه تزوّج من جنيّة تحت الأرض، ولمَّا سرقتْ شبابه طردته ودمّرت عقله وصار مجذوبًا.

يبدو ياسين حائرًا، ومُتابعًا بشغف للحوار الدائر: «ماذا أسمع وكأني شخصية حمقاء بإحدى الحكايات أو الأساطير»؟

ينظر إليه الشيخ طايل قائلًا بابتسامة خبيثة:

– لست شخصيّة حمقاء؛ بل أنت البطل يا ياسين.

يتكدّر وجه ياسين، فيسأل الشيخ:

– لن أسألك كيف عرفتْ ما أفكِّر به، ولكني سأسألك؛ ماذا تقصد بأني أنا البطل؟

– ما علمته الآن وأنا جالس معكم؛ أن الملكة أعجبت بك، ينتفض ياسين واقفًا ومُقاطِعًا:

– ماذا تقول بالله عليك؟ أنا لن أترك دعاء مهما كان ولن أكن ضحيّة لجنيّة بلهاء، فلتحترق هي وابنها.

يوزّع الشيخ طايل نظره عليهم جميعًا.

ثم يقول:

– أولًا، اعلموا أن قعدتنا هذه مؤمَّنة، وحولنا كثير من رجالي من الجن، وهذا يعني أن حديثنا لن يصل إلى الملكة إلا عن طريق قرنائنا من الجن، لكني بفضل الله خدرتهم جميعًا –يندهش الجميع– ثانيًا، سنراود الملكة عن خروج ابنها من جسد دعاء وبالمقابل تظفر بياسين عشيقًا لها.

ينهدّ ياسين جالسًا، يزدرد ريقه، وبصوت متقطِّع:

– ألا يوجد حل آخر؟

تتكدّر ملامح الشيخ طايل:

– ليس هناك حل آخر؛ فبعد خروج ابن الملكة إن شاء الله، سنحصِّن جسد دعاء، أما أنت يا ولدي فسنبحث لك عن خطة لنخلصك منها، ولكن لتكن على علم يا ياسين أن فرصة نجاتك منها ضئيلة، ما رأيك؟

بصوت محشرج يقول ياسين:

– موافق، موافق أن أضحِّي بنفسي فداءً لابنة عمي.

تتكدّر ملامح الجميع، وينطق الحاج صالح:

– أأكسب ابنتي وأخسر ابن أخي، يا الله يا مفرج الكروب فرج كربنا.

يقول عامر ممتعضًا:

– وما هي خطتك يا شيخ لانتشاله من براثن تلك الجنيّة العاهرة؟

– هناك احتمالان، أما الأول؛ فبعد ظفرها بياسين؛ نحاول خطف ابنها ونطالب بعودة ياسين بيد أن هذا جد صعب، ويحتاج لكتاب «السحر الأسود» وهذا الكتاب عندي ولكني أقسمتُ ألا أستخدمه فكله شرور، أما الاحتمال الآخر؛ أن يظل ياسين عشيقًا لها لمدة سنة أو عدة سنوات ثم تتخلّص منه بسبب وهنه وضعف قوته، وتُلقي عليه لعنة الجنون وتطرده بالخلاء، وعندها نبحث نحن عنه ونداويه، هذا كل ما في الأمر، فكروا مليًا وأنا بانتظار ردّكم؟

***

يبد ياسين متربعًا على سريره، وبيده لُفافة تبغ قاربت على الانتهاء، وأمامه منفضة مكتظة بأعقاب السجائر، وسحابات الدخان تركض صوب النافذة المضيئة بنور الشمس للهروب من الغرفة المندوحة بالكآبة، طيف دعاء وذكرياتها يحومان من حوله، و نداءاتها باسمه تتردد في الأثير من حوله، وجهها مكتظ بالجروح والسحجات، ودماء تنزف من مقلتيها اللتين تحويان بؤبؤين رماديين، وثيابها خرق مهلهلة؛ تردد جملة: «الشمس غربَت يا (ياسين) ويحر بي أن أغرب أنا أيضًا»؟

ماذا سيقرّر؛ هل سيتركها تغرب عن دنياه، أسيتركها تغرب عن الدنيا؟

يفكّر: «أحببتُكِ بصدق يا دعاء، وسأظل أحبكِ حتى نهاية المطاف؛ لذا سأضحي من أجلكِ بصدق وبرضا نفس، حتى وإن غرُبت عن دنياي فلن أتركِكِ تغربين عن الدنيا، سأجعلها تتلبَّسني،

ولكن كيف يتلبّس الجن الإنسان، كيف يحل مكان الروح من الجسد ويسيّره وفق إرادته، يا لضعف البشر أمام مخلوقات الله الأخرى، ستعاشرني وستلهو بي، سأنزل معها تحت الأرض، أو أسكن معها الكواكب، سأتحمّل السنين العجاف من أجلكِ؛ فشفاؤكِ هو مرادي، وسأتمسك بالله وأترجاه أن يهبني الأمل، الأمل في اجتماعنا فقط هو الذي سيجعلني أواصل حياتي وأنا بعيدًا عنكِ».

***

بعد صلاة العشاء؛ يقعدون أربعتهم بالمنظرة، تُغلق الأبواب والشبابيك، وتعبق أدخنة البخور ورائحة المسك سائر البيت، يتململ الشيخ طائل هامًا بالحديث:

– اِعلم يا ياسين يا ولدي إن قدّر الله لك النجاة فستنجوا؛ لذا كن مؤمنا بالله حق الإيمان، فهو منجيك، وكن موقنًا من داخلك أنك ما فعلت ذلك إلا لدفع مضرة وشفاء مريضة هي ابنة عمك وإن شاء الله ستصبح زوجتك بعد عودتك سالمًا.

تنساب دمعات ياسين في صمت، ومن داخله لا يدري هل سيعود حقًا، أم سيهلك؟ ولكنه ورغم ما يكتنف مسعاه من مجهول وغموض، إلا أنه راضٍ عمَّا سيفعله، ينهض عامر قاصدًا ياسين، يقعد بجواره، ويحتضنه بقوة:

– سأفتقدك يا صديقي؟

يقولها له بصوت جاهدٍ كي يُخرجه، ثم يعود لقعدته، يقول ياسين مخضّلَ الخدين:

– ماذا سيحدث بعد؟ هل ستتلبسني وأظل في بيتي أم أسيح بالأزقة والطرقات أم أنزل تحت الأرض أم ماذا؟

يقول الشيخ طايل بمسحة حزن، ونظرة مُشبّعة بقلة الحيلة:

– اعلموا أنني لمَّا أرسلتُ إلى الملكة رُسلي من الجان وشرحتُ لها وأخذنا مواثيق المبادلة وعهودها هنالك جدَّ جديد.

– وما جديد المبادلة؟

يسأله ياسين، فيجيب وكأنهم جميعًا من سألوه:

– طلبَت ياسين إلى كهفها، وقد اقتربَتْ ليلة المحاق التي سيذهب فيها ياسين إلى واد الجن بالجبل الشرقي، ويسلِّم أمره لله تعالى، عندها سيُشَق الجبل فيدخل ياسين الكهف ويلتقي عاشقته.

يتمتم عامر:

– والله هذا مؤلم.

ثم يعلو نحيبه.

يقوم ياسين من مكانه... يقعد بجانب عامر، ثم بصوت خفيض:

– «الضرورات تبيح المحظورات» أما كان هذا قولك لي يا صاح، خلك مؤمن بالله وقدره؟

ثم يقبّل كتفه ويغادره صوب الشيخ طايل الجالس متربعًا على الدكة بجانب الحاج صالح، يقول:

– لي رجاء أخير قبل الرحيل.

يرد الشيخ طايل مُختلسًا ابتسامة من بين أنياب اللحظات الشائكة:

– أعرف طلبك، لكن قل لعمك فإن وافق فلك ما طلبت؟

يستدير ياسين صوب عمه، يأخذ يده ويُقبّلها ويُقبِّل رأسه، ثم يسأله:

– أريد أن أرى دعاء مرة أخيرة قبل الرحيل يا عم.

– لا تقل أخيرة؟ ستعُد إن شاء الله وستتزوجها يا ابن أخي، ولكن سَل الشيخ ليخفف من وطأة سكراتها، لتدخل وتُسلم عليها؟

اختفت الابتسامة المُختلسة من وجه الشيخ طايل، وتحوَّلتْ لملامح جادة:

– لحظات وأطلب لك هدنة من الوقت لا يتدخّل فيها ابن الملكة.

***

تتبدى دعاء نائمة مثل حور الجنّة في مرقدها؛ شعرها مفروش فوق وسادتها، مدثّرة بملاءة مزركشة بالورود، مغمضة العينين، شاحبة الوجه، يُفتح الباب، يدخل ياسين، يوصد الباب من خلفه، في إضاءة الغرفة الواهنة؛ يقترب منها ويقعد على كرسي خشبي بجانب رأسها، ودقات قلبه المتسارعة تطغى على صمت الغرفة، يتأملها للحظات كافية لتذرفَ عيناه دمعها ببطء.

كيف لن يراها ثانية؟ يفكِّر، إن كانت تلك لحظة الوداع؛ فأي الأفعال التي إن أتى بها، خفّفَت من وطأة تلك اللحظة، لا شيء.

أيًا ما يفعله، سيفعله من أجل الذكرى، سيفعله ليتذكّرها بعد حين إن كان لا يزال حيًا، ليستمتع بوجع قلبه واشتياقاته الفتّاكة لحظة التذكُّر، فكما يقتات الجسد على الطعام؛ تقتات الروح على الذكريات؛ سيقتات على هذا الوداع حتى تفارقه الروح إلى بارئها.

مدّ يده وأمسك بيدها؛ باسها، وظل ممسكًا بها محاولًا استنساخها: «ماذا لو كان البشر قد خُلقوا بقدرة الانقسام إلى نسختين؛ أقلها كان سيصطحب إحداهما معه، ويوفِّر على قلبه الوجع».

تتململ دعاء، تفتح عينيها بوهن، تجده بجانبها، تنظر إليه، تبتسم بوجع، وبصوت ناعم حزين متهدج تسأله:

– أأتيتَ يا ابن العم؟

يهم بمسح دموعه، فتبادره يدها، وتنساب أناملها الغضّة على خدّه تزيح دمعاته بتأن يشعر بلمستهم تداعب شغاف قلبه المضطرب وليس وجهه.

– لماذا تبكي يا ياسين؟

لحظات صمت، وكأنه لا يعرف أي إجابة يقول، فالإجابات لديه كثيرة، أبرزها هي تلك اللحظات؛ لحظات الوداع، ولكنه آثر قول إجابة غيرها:

– دموع الفرحة؛ لأنكِ بخير ولأني رأيتكِ.

– ألست غاضبًا مني؟

– ولِمَ عساي أن أغضب؟

تصمت دعاء أيضًا؛ وكأن لديها أسئلة كثيرة، ولكنها تنتقي سؤالًا:

– أما زلت تحبني يا ابن العم؟

يبتسم:

– وسأظل أُحبكِ.

– أدامك الله لي يا ابن العم.

– هل مازلتِ تحبينني أنتِ يا دعاء؟

– كيف تسأل هذا السؤال؟

– أقصدُ هل ستسامحيني على أي شيء قد أفعله من أجلكِ؟

– وماذا ستفعل؟

يتلجلج ياسين، تتداخل كل الأصوات في رأسه، ويذكّر نفسه أنها لم تبرأ بعد، وعلاجها هو تلاشيه، تبخرّه من أمامها، من حياتها، والذهاب إلى مجهول، يتدارك تلابيب أفكاره قائلًا:

– سألثم خديكِ وأُقبّلُ شفتيكِ؟

ترتسم على وجه دعاء ابتسامة، تتحوّل لضحكة غير مكتملة، فيقترب من شفتيها، فتغمض عينيها من رهبة الوداع وقدسيته، يخشعان في مِحراب العشق، فيسكران في لذّة قبلة طويلة؛ أجبرتْ الزمن على التوقف عنوة، خطوط شفتيها الظمأتين؛ ترتوي برضاب حبيبها المُسكِر فيتخدّر جسمها إلى الأبد.

– هيا يا ياسين.

يسمع زوجة عمّه تناديه، تنتشلهما من بُعدٍ كوني لم يكتشفه سوى العشّاق بعد. ينفك عنها بصعوبة، يقف، تفتح عينيها بوهن السكارى، تمسك يده، مثل طفلة صغيرة تتشدّق بأبيها قبل الرحيل، وكأن قلبها الذي توانت نبضاته يشعر بكل شيء:

– إلى أين أنت ذاهب يا حبيب؟

يتماسك كإناء طيني هش؛ تُسكب فيه حمم بركانيّة مستعرة، ورغم كل ذلك يقول:

– إن شاء الله سأعود قريبًا.

يترك قلبه معها، ويرحل.

***

الليلة قمرها محاق، بردها شديد، ضبابها كثيف ملتف؛ لا تظهر من البيوت سوى أضواء مصابيح خابية بين الحقول، ونباح الكلاب لا ينتهي، وصرير الجراد وصراصير الحقول لا يتوقف.

يقبل ياسين على دار عمه مرتديًا جلبابًا أسودَ من الصوف، ومكوّرًا على رأسه عمامته، شاردًا يتذكر دموع أمه وهو يودِعها.

قال لها إنه ذاهب لينقذ ابنة عمه، ويحضر دواءها لم تجد أمه بد من مناهدته أو اثنائه عن الرحيل، عندها سلمَت أمرها لله ودَعَتْ له بالسداد والعودة سالمًا.

يقف أمام بوابة دار عمه صالح يتمتم عابسًا:

– اللهم استجب لأمي.

تفتح زوجة عمّه البوابة؛ تبد متشحة بالسواد، لا تبين معالمها من ظلمة الفناء، يدخل المنظرة، يجد عمه والشيخ طايل جالسين، يسلِّم عليهما ويقعد، يقول الشيخ طايل:

– كن مؤمنًا بالله أولًا، ثم تذكّر جيدًا يا ولدي أن الجن لا تتجسد في أي صورة خلاف حقيقتها، إلا إذا تأكّدتْ جيدًا أنها بمأمن ومعزل عن أي يد تطالها، أو حجر يبطحها؛ فمتى تجسّد الجن فقد تسعة وتسعين بالمائة من قوته، ومتى تشكّل وصار له وجود مادي كان موته بلسعة نحلة أمر غير مستبعد، لكن كن حذرًا فانتقامهم مميت، فمتى حاولت وفشلت كنت في تعداد الموتى؛ لذا دع أمرك كله لله.

– حسبي الله ونعم الوكيل.

يقولها بعد لحظة صمت، ووجهه يقطر إصرارًا وتحديًا.

***

في منتصف الليل؛ تتضرّج السماء بغيومها، وتشتعل بالبرق، وينطلق هزيم الرعد يفتِّت سكون القلوب، وتهبط الأمطار على القرية بغزارة كعادة شتاءاتها المتتالية، يصل ياسين إلى أطراف الجبل شرقي القرية، يبدأ بتسلّق الصخور تارة، ثم ولوج الممرات الضيقة تارة أخرى، حتى يصل إلى قمّة الجبل، فيجدها مسطّحة مليئة بالبرَك المحفورة بالصخر وقد امتلأت بمياه الأمطار.

يسير ما بين البِرَك والبرق يضيء له طريقه من فينة لأخرى، حتى يقترب من وادٍ الجِن الأسطوري، ويبدأ بالنزول إلى قاعة، بمساعدة يديه وقدميه اللتين تتحسسان طريق الهبوط، تتعثّر قدماه بحجر

فيقع متدحرجًا إلى الأسفل، حتى تَصُدّه صخرة عظيمة في بطن الوادي، فيغشى عليه من الألم والتعب.

بعد لحظات يستفق ياسين، يشعر بالبرودة، يتحسّس رأسه؛ لا يجد ملحفته، يتحسّس وجهه، يشعر بالوحل الملتصق به، يحاول النهوض، لكن الظلام يلفه من كل الاتجاهات؛ يقعد لا يعرف ماذا يفعل؟ يومض سنا البرق فيضيء لوهلة ما حوله؛ فإذا بأكوام من هياكل عظمية لموتى مهشّمة وأخرى سليمة، وأشلاء ورؤوس مفصولة عن أجسادها جاحظة العيون، وجثث بملامح مشوّهة؛ يفذ واقفًا من الصدمة، يحاول الابتعاد ولكن يعاود البرق ليضيء له فيجد نفسه بواد امتلأ بأكوام من رفاة البشر وأشلائهم، يصرخ:

– إنه وادٍ للموت، واد للمو..، واد للم..، وا...

تتسارع خفقات قلبه، لا يستطيع نطق الكلمات كاملة، يخر جالسًا ينتحب، يرتجف، يحتضن ركبتيه، يدفن رأسه في حجره، والأمطار تجلده بسياطها دون توقّف، حتى أنه يشعر بأن ثيابه التصقت بجسمه وكأنه عاريًا وسط الجليد.

فجأة؛ يسمع قضقضة وتهزُّم؛ يرفع بصره، يرى بصعوبة أشباحًا تقبل صوبه في الظلام، تبرقَ السماء من جديد؛ يجد الحياة قد دبّتْ في أشلاء الموتى ورفاتهم، وكلهم قد نهضوا ويدلفون صوبه مزمجرين، يهب ياسين واقفًا، والموتى الأحياء يقتربون منه رويدًا رويدًا، ولكنه مُبلس عاجز عن أي ردة فعل، حتى أصبح بين فكي كمّاشة، وراوده إحساسًا بأنه قاب قوسين أو أدني من الهلاك، ولكن نقطة نور ضئيلة في أعماقه أوحت إليه بأن يتماسك، فلا

زال هناك الكثير ليفعله، من ذات النقطة، انفجر نداء لم يسمعه بأذنه: «ساعدني يا ابن العم».

– سامحيني يا دعاء، القدر كان أقوى، أقوى.

فجأة؛ يسمع خفق أجنحة قوي فوقه، ثم يشعر بمخالب تلتقطه من كتفيه، ويجد نفسه يرتفع لأعلى؛ يُذهل وكأنه في حلم، إنه يحلِّق، لقد نجا من الموت بأعجوبة، وانتُشل من واد الجن، وربما ذاهب للموت أيضًا بذات الأعجوبة التي نجّته، يشعر بجسده يتخدّر، ويصبح بلا حول ولا قوة، محلِّق بالهواء وغير محلق، لا يعرف أين وجهته، وجفونه تُغلق فينة وتُفتح فينة أخرى وكأنه رافض للموت متشبث بالحياة حتى تُغلق تمامًا.

***

يفتح ياسين عينيه؛ يجد نفسه جالسًا أرضًا وظهره لصْق صخرة ضخمة، وأمامه جبل شاهق صخوره سوداء مُسنّنة، يتعجّب: «لقد أتى لوادي الجن من قبل، ولم يرَ ذلك الجبل، وكأن المكان تبدّل، أو انتقل هو لعالمٍ آخر»، يُلاحظ بصعوبة توقّف المطر، وإضاءة خافتة بالكاد تظهر كنه الأشياء من حوله.

ينظر إلى بقيّة جسمه المُسجى؛ يجد ثيابه استحالتْ لأسمال بالية، أمّا أطرافه فيشعر بها وقد تجمَّدتْ من البرد القارس والأمطار، ما عادت به غير حدقتين تتحركان، وشهيق وزفير يتناوبان بصعوبة، يتذكّر دعاء، كيف ينساها؟

أتمنى من الله أن تكونِي قد شفيتِ يا دعاء، يدعو بها في أعماقه: «ماذا لو سألت عني» يتساءل: «بماذا سيجيبونها؟ هل سيقولون

لها الحقيقة؟ أم سيخفونها عنها فتعتقد أنني تخليتُ عنها بسبب مرضها»؟

يضيق صدره؛ يحاول النطق:

– رحماك يا الله.

يفاجئه اهتزاز الجبل أمامه وكأنه سيُقتلع، ثم ينشقّ من منتصفه مثل ستار ليكشف عن كهف ذي بوابة صخريّة عظيمة، مزيّنة بنقش لامرأة بشريّة جميلة، على رأسها تاج، داخل نجمة خماسية، تحيطها زخارف بلغة أول مرّة يراها، يفكِّر من ذهوله: «مؤكد أن هذا هو الكهف، سجني».

تهتز البوّابة ثم تختفي، وإذا بسبع درجات سلم مؤدية إلى مدخل كبير مظلم للكهف في باطن الجبل؛ تخرج منه سحابة دخان سوداء عموديّة بسرعة فائقة، تقترب من ياسين وتغشاه كله، يشعر بجسمه يُرفع من فوق الأرض، فينقبض قلبه مهابةً، ويشعر برغبة شديدة في النوم، وتُغمض عينيه، وتطير به السحابة إلى المدخل المُظلم، تظهر البوّابة الحجرية العظيمة من جديد، ثم يغلق الستار الحجري وكأن شيئًا لم يكن.

4

صمت القرية بعد صلاة العشاء، هدوء شوارعها، وأنين الكلاب الضالة وعواؤها في أركان الطرقات؛ جعل الحاج صالح يغلق باب المنظرة، فيصر صريرًا خشنًا ممطوطًا، ثم يعود لقعدته بصحبة الشيخ طايل في إضاءة المصباحِ الصفراء:

– حمدًا لله على سلامة ابنتك يا صالح.

بيد أن الحاج صالح تظهر عليه جليّة سيماء الحزن الشديد، حتى بعد أن شفا الله له ابنته دعاء:

– ابن أخي ضاع يا شيخ، على ما تهنيني؟

– خلك مؤمن بقضاء الله يا صالح؟ وأنا بعد عودتي إلى القاهرة سأحاول النبش عن كتاب السحر الأسود، وسأحاول قدر المستطاع المحاولة في استعادة ياسين.

لحظة صمت أعقبها بسؤالٍ يبدو غير ضروري:

– متى ستسافر؟

– بعد قليل إن شاء الله.

يخيّم الصمت والشرود على الاثنين.

– أين ياسين يا أبي؟

سؤال دعاء بعد دخولها إلى المنظرة من الداخل؛ قطع صمتهما، ترفل في جلبابها الأزرق الفضفاض، شاحبة الوجه، تتراقص الدمعات بمقلتيها، وتلحقها أمها المتشحة بالسواد، مرددة:

– يا بنيتي تعالي، لقد قلت لكِ مرارًا وتكرارًا أنه سافر وسيعود قريبًا.

تلتفت دعاء إلى أمها، تقول بضيق:

– هاتفه مغلق. وقلبي يحدثني أنه في خطر –ثم تلتفت إلى الشيخ طايل– أنت الوحيد يا شيخ الذي سيقول لي الحقيقة؛ أرجوك أين ذهب ياسين وهل هو بخير؟

يطرق الشيخ لحظات، ثم ينظر إليها بعطف:

– سأحكي لكِ عن كل شيء ثم أرحلُ إلى بلادي.

لمّا يقولها الشيخ طايل؛ يهتا والدي دعاء، ويطرقا رأسيهما، وتعود الأم أدراجها إلى داخل الدار، وتربّعت دعاء على الأرض قدام الشيخ، وبدأ يقص عليها ما حدث.

***

– محطّة القطار من فضلك.

يركب الشيخ طايل سيارة الأجرة بموقف سيارات القرية؛ يسأله السائق:

– أمشوارٌ خاص يا شيخ؟

– بلى، توكل على الله.

الشيخ عابس الوجه شارد الذهن، يفكّر فيما حدث لياسين، وكيف انتهى، وكيف ضحّى من أجل ابنة عمّه بحياته: «غريب أمر الحب هذا، الكل يضحي من أجله؛ أنس يضحي، جان يضحي».

وتنطلق السيارة لتشق ظلام الطُرقات الترابية والمُسفلتة بين الحقول تارّة، والصحاري تارة أخرى.

***

مرتدٍ جلبابه ومن فوقه معطفٌ جلديٌ؛ يقف «عامر» في غرفته، أمام صندوق خشبي كبير أخرجه توًا من أسفل سريره، ومن خلفه مكتبه الصغير، يبدأ بنفض التراب عنه بخرقة قماش، وما إن ينتهي إلا ويقعد متربّعًا فوق السرير بجانب الصندوق، مُلقيًا بالخرقة جانبًا.

يفتحه ويشرع في إخراج كتب صفراء أوراقها تكاد تكون بالية، يتفحّصها كتاب تلو الآخر؛ فتحتل تقاسيمه سيماء الامتعاض ويزفر ضيقًا، ينظر إلى كومة الكتب المسجاة على السرير، يقول بضجر:

– ليست لكم أي قيمة؛ آخركم تحضير إحدى بنات إبليس للمضاجعة، أو تحضير جان لسؤاله عن ناتج ضرب خمسٍ في ستٍ، آه لو أني كنتُ أملك كتاب السحر الأسود الذي لدى الشيخ طايل؛ إذا لزَلزَلتُ الجبل فوق رأس الملكة بكهفها، وأخرجتُ صاحبي، ولكن للأسف لا أملك سوى تلك النفايات التي ينعتونها الجهلاء «كتب سحر»؛ إن كتب السحر لا تباع ولا تشترى؛ كتب السحر الحقيقية عمرها آلاف من السنين، والموجود منها مع البشر يعد على أصابع

اليد، مثل كتاب الشيخ طايل، سأذهب لصنع كوبًا ثقيلًا من الشاي، فما عدتُ أبصر أمامي.

في صمت الغرفة القاتل؛ يفذّ واقفًا، يخرج من الغرفة، يسمع تكتكات عقارب الساعة المعلّقة بالحائط، ينظر إليها، تزحف تجاه الواحدة بعد منتصف الليل، أمه وإخوته جميعهم يغطّون في نوم عميق، يسمع غطيطهم، فيدخل الى غرفة نومهم، يطمئن عليهم، ثم يغلق الباب دالفًا إلى المطبخ، يشرع في صناعة كوب من الشاي المغلي، وبعد أن يجهُّزه، يتناوله ويقفل عائدًا إلى غرفته.

يقعد فوق السرير، يبدأ بارتشاف الشاي: «سأعيد تلك الكتب العديمة إلى صندوقها للأبد» يقرّر، يضع كوب الشاي على خوان بجوار السرير، ينظر إلى الكتب الملقاة أمامه بتقزّز، وفجأة؛ ينتفَض واقفًا من الفزع، يحملق جيدًا إلى الكتب، يدْعَك عينيه، يحملق مرة أخرى، فيتأكد أن ما يراه حقيقة.

***

في غرفتها ليلًا؛ تبدو دعاء مستلقية على السرير، متزمِّلة باللحاف عدا رأسها، مخضَّلة الخدين، جاحظة العينين، نظرها مثبّت إلى السقف المجصّص، ولكن قلبها وعقلها هائمين في ياسين.

تشعر بأنها السبب في هلاكه، وفي ذات الوقت تشعر بأنه لم يهلك بل بخير وسيعود إليها، تتذكَّر آخر مرة رأته بها، وتتذكّر القشعريرة التي أحدثتها قبلته بجسدها، والخدر الذي طالها بعدها، تمنّت لحظتها ألا ينفك عنها أبدًا، وأن تظل شفتاهما ملتحمتين، وليحدث ما يحدث في الكون من حولهم، وليغضب من يغضب،

فسعادتها آنذاك كانت تستحق إغضاب الكون جميعًا، وأصغر جزء من سعادتها كان يمكن إن وزّعته على الكون أن يصالحها، وتعم السعادة فيه إلى الأبد، لو كانت تعلم أنه سيغيب عنها آنذاك، وسيحدث ما حدث، لشقَّتْ صدرها، وحبسته داخل قلبها، ومنعته من الرحيل، ولكن لم يكن باليد حيلة وقتذاك، ولم يكن بحوزتها سكين.

«إن شاء الله سأعود قريبًا»

هكذا قال لها، تزفر، تتنهّد، تغمغم:

– لقد قدَّم المشيئة ولن يهلكه الله أبدًا.

تسيل دمعاتها بتأنٍ:

– مشتاقة لك يا حبيبي؟

ويتوارى السقف المجصّص خلف سيول من الدموع.

***

في غرفته؛ يتعجَّب عامر مما يرى أمامه بين الكتب.

– يا له من كتاب ضخم، ولكن من أين أتى؟ أنا لم أره من قبل، يبد أنه كتاب سِحر قديم من الكتب التي تمنيتُ امتلاكها.

يمد يديه ويحمله، فيجده ضخمًا في حجم أربعة كتب من كتبه؛ ثقيل مصنوع من جلود مجهولة مدبوغة أشبه بجلود البشر، يضعه على مكتبه الصغير، ويقعد، ويهّم بفتحه ليعرف ما كنهه، ولمّا يرفع دفة الكتاب؛ تنطفئ أنوار الغرفة تدريجيًا، ويجد عامر نفسه في ظلام دامس، ينظر إلى الكتاب فيجده مُشعّ بنور مجهول

المصدر؛ فيظن بأنه امتلك كتابًا ثمينًا، من فوره هذا؛ يضج رأسه بجلبة غريبة؛ أصوات شجار وصراخ تعلو برأسه حتى يوقن بأنه سينفجر، يضغط بكفيه على رأسه، ويُغمض عينيه صائحًا:

– هذا يكفي.

تتوقّف الجلبة برأسه، يسمع وقع أقدام تقترب إلى باب غرفته، لربما كان خادم الكتاب، يُطَمئِن نفسه، ثم يصيح:

– قف مكانك.

فورًا؛ يتيبّس الوقع خارج باب الغرفة، يبتسم عامر، ينظر إلى الكتاب، فيجد بالديباجة كلمات بالعربية، يقرأها: «أتيتُ إليك لأنك تمنيت امتلاكي بصدق، وسأتركك إذا ما تمنَّاني غيرك بصدق؛ لذا لا تخبر أحدًا عن سري، فمتى تركتُك؛ قتلتُك ومات معك سري».

يتوجَّس خيفة من ذاك التهديد الصريح، يرفع بصره، يحاول أن يستجمع تلابيب أفكاره، يعود ببصره ليقرأ؛ فيجد الديباجة خالية من أي كتابات؛ يدرك عندها أن الأمر جد جاد، يسمع طَرقات ناعمة على باب غرفته، يصيح من فوره:

– أدخل.

تدخل سيدة عارية؛ يتأمّلها، فيجدها كأميرات الأساطير، أو كآلهة الجمال؛ طول فارع، خصر دقيق منحوت بحرفية، بياض مُشع، نهدان منتصبان مضبوطان مع تناسق جسمها، عينان واسعتان زرقاوان، وأنف جميل، وشفتان بارزتان، وخدّان أسيلان بغمّازتين، ومن حولها هالة من نور، وشعرها أسود ناعم طويل

ملامس لكعبيها، يتوقّف عن تأمل سحرها الأسطوري؛ ينتفض واقفًا، يتحرّك صوبها، تنطق بغنج جميع نساء الأرض:

– أُسترني.

يتلعثم عامر، يسألها:

– كيف؟

تغمز بعينيها:

– في أحضانك.

يفتح ذراعيه كالمنوّم؛ ترتمي على صدره، تطوّقه بذراعيها؛ يحس بصهد جسمها؛ تغمره اللذّة، فيغمض عينيه، فيزداد صهدها ويشعر بأنها تحترق، يفتح عينيه؛ يجدها تتحوّل إلى نار ودخان يتخلّلان مسامات جسمه بألم حتى تتماهى فيه، وتختفي بداخله، يشعر بأنه قوي، وفجأة يسمع صوت أنثوي رقيق في أذنه، يقول:

– فلتقعد الآن أمام الكتاب لنعلِّمك كيفية استخدامه.

يضحك عامر، يقعد أمام الكتاب، يقلب الديباجة، فيجد كلمات موجهّة إليه فيقرأ: «لتكن على علم أن الجنيّة التي تلبّستك الآن هي التي ستقوم بقتلك في حالة إفشائك سر هذا الكتاب» ثم تمنّاه أحدًا غيرك بصدق. ما إن يقرؤها عامر إلا ويتراجع بجسده إلى الخلف، ويدَمْدِم مرتجفًا:

– وامصيبتاه.

وإذ به فجأة؛ يشعر بشيء يتحرّك مُتسلِّقًا ساقيه، فيكشف عنهما جلبابه؛ فيجد أكوامًا من عقارب صفراء مشعّة في الظلام،

تتسلّقه بسرعة غريبة إلى أعلى مشرِعة أذنابها، وعلى أهبة الاستعداد للّسع، حينئذ؛ تسري بجلده قشعريرة شديدة، ويتصلّب جسده؛ يحاول التململ والتملُّص بدون فائدة؛ وكأنه محبوس داخل تابوت ضيّق هو جسده، لم يعد قادرًا على التنفّس، دقات قلبه تقترب من التوقُّف، روحه تُقتلع من جسده ببطء سلحفاة.

لحظات تختفي الرسالة، فتختفي أكوام العقارب، وتعود أنوار الغرفة إلى الحياة، يلتقط عامر أنفاسه، يدرك أنه هالك لا مناص؛ يتساءل في أعماقه المهزوزة: «يا ترى أأنا أول من يمتلك الكتاب أم أن هنالك من امتلكه قبلي ومات؟ وما هي قدرات هذا الكتاب»؟

ومن فوره هذا؛ سمع الصوت الأنثوي بأذنه يقول:

– أمّا عن قدرات الكتاب فهي تتخطى كل حدود عقلك وتفكيرك، وستكتشفها بنفسك مع الوقت، أما مالك الكتاب السابق فهو الفقيد «طايل».

***

تصل السيارة الأجرة إلى محطّة القطار، فيصيح السائق من فوره:

– لقد وصلنا المحطّة يا شيخ، تفضّل بالنزول؟

لا توجد ثمّة إجابة، يستدر السائق لينظر خلفه؛ فيجد الشيخ طايل جاحظ العينين، فاغر الفم، أزرق الوجه، لا ينطق بحرف، ينزل السائق سريعًا، يفتح باب السيارة الجانبي ويدخل خافضًا رأسه، يقترب من الشيخ، يمد يده ليجسّه؛ فيجده جثّة باردة هامدة

لا نبض فيها، ينظر تحت قدمي جثّة الشيخ؛ يلمح عقربًا أصفر اللون شكله غريب عن شكل العقارب التي يعرفها، يختفي تحت مقاعد السيارة بسرعة غريبة، يتراجع من السيارة خارجًا، يركض صوب رجال الشرطة المتمركزون أمام المحطة مستنجدًا:

– الحقوني، الشيخ قتلته العقارب، انجدوني؟

***

– ويلي.

يقولها عامر مصدومًا، ثم يُغلق الكتاب؛ يفذ عنه مفزوعًا، يمسك رأسه بين راحتيه:

– الشيخ طايل مات، الرجل الطيب انتهى، يا ربّاه! ليتني لم أتمنَ الكتاب! ليتني لم أتمنّه!

تتكدّر سيماؤه، ويحمر وجهه، ولكن سرعان ما يتحوّل غضبه إلى ابتسامة وكأن شيئًا لم يكن، يقعد أمام الكِتاب؛ يتذكّر ياسين، ويتذكّر أيضًا دعاء، دعاء الجميلة التي ضحّى ياسين من أجلها أصبحتْ وحيدة، وياسين لا يعرف أين هو الآن؟ ماذا عليه أن يفعل؟ هل يحاول مُساعدته ويعرّض نفسه للخطر؟ أم يعش سنواته المتبقيّة حتى لا ينكشف سره، الآن باتت معه قوة لا يُستهان بها؛ أيًا ما سيفعله؛ لن يقف في وجهه أحدًا أبدًا؛ إنها الحياة تفتح ذراعيها بكل ملذّاتها، ولكن... ثم يتوقّف عن شروده.

يقلب الصفحة الأولى؛ فيجد الباب الأول؛ عدة عناوين بعدة لغات، من بينهم العربية، وأسفلهم؛ أقسام مرصّعة بأسماء جن

غريبة؛ كُتبت السطور بمداد أحمر يشبه الدم، وبريشة ذات خط عريض، تخلّلت الفقرات مُنمنمات مطلسمة عجيبة، ولمّا قرأهم اندهش.

5

يفتح ياسين عينيه؛ يجد نفسه منتصبًا مقيّدًا بأغلال حديديّة إلى جدارٍ صخري بقبوٍ مظلم، يحاول التحرك، يحاول جذب الأغلال؛ تخشخش دونما فائدة؛ فينتحب بعد مرور لحظات؛ يسمع ياسين صوتًا أنثويًا عذبًا بمقربة منه:

– أسهل شيء عندكم أيها البشر هو البكاء، عزاؤكم وسلواكم وهروبكم من ضعفكم.

يصمت، يجهد عينيه بتمقيقها بين أمواج الظلام الحالك بحثًا عن مصدر الصوت، ولكن دونما فائدة. إذًا لا بد أنها من الجن يقرّر ثم يقول حانقًا:

– نحن لسنا أقوياء مثلكم، لسنا ذوو قلوب متحجّرة.

تصدَح ضحكات المُتحدِّثة المجلجلة، تقول:

– ظلمْتنا أيها الآدمي الطيب.

يصمت ياسين برهة يفكّر في رد، ثم يجيبها مُتهكّمًا:

– الحب؛ هو ما ساقني إليكم، الحب؛ هو الذي أدخلني سجنكم بإرادتي، وبالطبع أنتِ وقومكِ لا تعرفون ثمّة شيء عن الحب.

تضحك ثانية فيتردّد صدى ضحكتها بقوة، ثم تعقّب:

– لا تتحدَّث إلا عن نفسك أرجوك؛ لأنكم البشر لا تعرفون الحب، لستم من تحبون بصدق، نحن من نحب بصدق، ونحن من نضحّي بصدق.

يضحك ياسين بصوت مرتفع، يقول:

– واضح أنكم رقيقوا القلوب، ومُرهفوا المشاعر –ثم يجذب الأغلال بقوة فتصدر خشخشتها– أأغلال الحب هذه؟

تضحك بغنج عاهرات الكون:

– بلى، أغلال الحب نحن معشر الجن؛ لمَّا نعشق لا نتخلى عن معشوقنا تحت أي ظرف من الظروف، فإن كان المعشوق من الجن أو البشر؛ سكنَّا في روحه وجسمه، سكنّا في قلبه، سكنّا في أوصاله، حتى لا نفارقه أبدًا، وصِرنا عينيه التي يبصر بها، ولسانه الذي يتكلَّم به، وعقله الذي يفكِّر به، وإن كان ضعيفًا وهبناه قوتنا، وإن كان زليلًا أعزيناه، وإن كانت له أحلام حققناها؛ أليس هذا بحب حقيقي أيها الآدمي الضجر؟

يغتاظ ياسين، يصيح:

– أيتها الملاك –ثم بصوت هادئ– لولا أني مكبّل بأغلال الحب لصفّقتُ لكِ بحرارة حتى أدميتُ كفاي إعجابًا بأعمالكم الخيرية التي تقومون بها من أجل تحقيق أمنيات من تُحبون.

تصمت المتحدِّثة برهة ثم تقول:

– إنَّ الملكة تحبك وتريدك زوجًا لها، فدع عنك ثرثرتك الفارغة، واستعد فإن ليلة دخولك بها اقتربت.

ثم تضحك بتهكم ويبتعد صوتها، ويخيِم الصمت الذي يقطعه ياسين مُعترضًا:

– أهكذا بسهولة قد قررتم؟

تعود إلى التحاور معه، تهمس بالقرب من أذنه بفحيح كما الأفاعي:

– مسكين أنت، بل وطيب أيضًا هل تظن أنها ستنتظرك؟

– ماذا تقصدين؟

– أقصد حبيبتك التي ضحيت من أجلها.

يقاطعها ياسين:

– دعاء ستقدِّر ما قدَّمته لها من تضحيات، إن عرفَت الحقيقة، وستنتظرني.

تضحك بسخرية، تبتعد، تقول:

– ما تقوله كلام من كلام أفلامكم، وهذي من هذي رواياتكم، ومحض أحلام من عوالم أحلامكم؛ ولن تتحقّق أبدًا إلا في مخيلتك أيها الطيب، أنتم بشر خوّانون؛ هذه قاعدة، وحتى إن شذّت حبيبتك عن تلك القاعدة مثلك –ثم تضحك بتهكم– وانتظرتك؛ نحن لن نتركك إلا بعدما أن تصير فزّاعة طيور بمعنى؛ رجل بالاسم فقط، لا تستطيع أن تسعد امرأة ولو بلثمة على الخد، وحينئذ؛ هي من ستهرب منك –ثم تضحك برقاعة– لأنه معلوم عندكم ما تريده المرأة من الرجل، ولا فائدة لامرأة برجل بالاسم فقط.

– وملكتكِ ألا تريد مني ما تريده نساؤنا؟

– لا، نحن نعشق بصدق –ثم تضحك بمياعةٍ ودلع– ولا مانع من الكماليّات الأخرى.

وتتعالى ضحكاتها، عقب جملتها، فيصرخ بها:

– لماذا تفعلون بي ذلك؟

– لأني أحبك.

يصمت لحظات، ثم يسأل بهدوء:

– من أنتِ؟

– أنا الملكة.

– الملكة إذًا.

– بلى الملكة يا حبيبي.

يصمت ياسين برهة يفكِّر في مصيبته: إن الجدية صارت سيدة الموقف، كل ما قيل حقيقة، يعد للتحاور:

– «أيتها الملكة» –ثم بصوت مرتفع– «أنا أحب دعاء وأريد الرجوع إليها».

يقترب صوتها، تقول:

– معشوقي البشري، لقد تعاهدنا من قبل؛ أنت مقابل حرية دعاء، وقد وافقت بمحض إرادتك أيها الطيب المغامر؛ لذا –ثم بصوت أجش– أوف بعهودك حتى لا أغضب عليك أنت وعائلتك.

يتردّد صدى صوتها بقوة في أرجاء الكهف مبتعدًا؛ حتى يتوقَّف وينفرش الصمت.

***

في ظلام دامس؛ تصدح ضحكات الملكة، يتردّد صداها، تقول:

– سأتخذه عشيقًا لي، ولا تحاول أن تؤذه مرة أخرى؛ لا في نوم ولا في يقظة.

يجيبها صوت رجالي غاضب:

– أمي، عشيقتي الإنسية جعلتِنِي أتركها من أجل أن تظفرين بهذا الإنسي الضعيف؟

– لا تسبّه وأخرجه من رأسك، وابحث لك عن إنسيّة غيرها؟ وما أكثرهن بالخارج.

– طيب، لكن كوني على علم بأنه لن يحبكِ أبدًا.

– سيحبني.

يُفتحا عينان كعيني القط من بين طيات الظلام، وما أن يتسعا إلا ويضُيقا ثانية، ثم يغلقان، وكأنهما عيني الظلام ذاته.

– سنرى، وإن صدق كلامي سأعاقبه بنفسي.

– اغرب عن وجهي الآن.

يفتحا العينان ثانية، يتسعا، ويصيبهما وهج أحمر كالجمر.

– سأغرُب.

ثم يذوبا في الظلام، وبعد ثوانٍ؛ تُفتحا عينيان أخريين، كعيني الأفعى، ثم يضُيقا، ويذوبا في الظلام.

***

يلمح ياسين نورًا قادمًا وسط الظلمة؛ يقترب رويدًا رويدًا حتى تظهر امرأة تحيطها هالة من نور، يتأملها باندهاش.

وجهها بدر باسم مشع، عيناها واسعان جريئتان مرسومتان بكحل فرعوني قديم، وشفتاها ممتلئتان مائلتان تقطران شهدًا، وشعرها أحمر طويل ليس له نهاية، وفوق رأسها يقبع تاجًا من الذهب مرصّع بالماس، فارهة القامة، ملفوفة الخصر دقيقته، ترفل في فستان أبيض ضيق موشى بالذهب، يخشخش كلما تقدَّمت، عاري الكتفين؛ يظهر نصفي نهديها العلويين وفلقتهما، يشعر ياسين لوهلة أنهما نُفّاختين رقيقين ممتلئين بالماء وعلى وشك الانفجار.

بذراعيها الأبيض أساور من ذهب كلما تحرّكت تردّد صدى رنينها في الكهف عجبًا. لا يزال ياسين يتأمل تلك الجميلة مشدوهًا وهي تقترب منه، حتى تنتصب على مقربة تتأمّله بدورها، ثم يظهر من خلفها أربع وصيفات جميلات، شعورهن لا تتخطى عجيزاتهن؛ يرتدين فساتين بيضاء بأكمام، ويحملن فوق أيديهن أقمشة بيضاء نظيفة ومطبّقة بعناية، تقول الجميلة:

– «أنا الملكة». يتردد صدى الكلمة بالكهف وكأنه يصدر عن جوقة: «أنا عروسك»، ثم تنظر إلى وصيفاتها ثم إليه: «ما رأيك فيّ»؟ ثم بنعومة ودلع: «أأنا أجمل أم دعاء»؟

تجحظا عيني ياسين، أحدهم يداعب شغاف قلبه ليخترقه، ولكن لا فائدة؛ لو أن سحرة العالم سحروا له بكره دعاء؛ فلن يُمحق حبٌ جعله يغامر ويضحّي بحياته وفاءً له، فلتلعب لعبة غيرها، حب دعاء لم يكن مجرّد حب؛ بل عقيدة يؤمن بها؛ يتبتّل في محراب عينيها، ويخشع في حضرتها ويركع ليقبّل شفتيها اللتين تطهّرانه من كل ما علق به من هم وغم.

ورغم ذلك؛ يشعر بسحر الملكة الذي يجتذبه لينطق رغمًا عنه، ويقول لها: «أنت» سِحر تمارسه عليه الملكة ليعلن حبه لها رغمًا عنه، فيتشبث بالسكوت؛ ويطرق رأسه كي لا يراها أمامه، ويمنع لسانه من النطق، ماذا لو نطقها رغمًا عنه، هل سيبطل ذلك حبه لدعاء، أم ما دام قلبه مُخلص فليفعل اللسان ما يحلو له، وسيُغفر له لاحقًا.

تقترب منه إحدى الوصيفات الأربع؛ تضع ما تحمله من أقمشة تحت قدميه، ثم تضع يدها على قلبه فينتفض جراء شحنة كهربائية اخترقته:

– أجب على الملكة حتى لا تهلك؟

كذلك تأمره الوصيفة؛ يرفع بصره، وينظر إليهن بتمعُّن وعيناه تلمعان بفعل نورهن الأخاذ:

– دعاء. يقول ياسين: «أجمل بكثير».

ثم يطرق رأسه ويصمت متسائلًا في نفسه؛ عن حقيقة شجاعته هذه التي جعلته يتحدّى سحرها، مؤكد هو الإيمان، يجيب بها على نفسه، ثم يغيب عن الوعي.

6

في المنظرة مساءً؛ يقعد عامر بجوار الحاج صالح مُطرقًا رأسه، لا ينفرج فمه عن كلمة، أمّا الحاج صالح يتأمّله في صمت:

– كيف حالك يا عامر؟

يتابع عامر صمته بوجه محتقن، يشعل لُفافة تبغ، ينهض، يمسك بكوب الشاي، يقعد على الدّكّة المقابلة للحاج صالح؛ ينفض رماد لُفافته بمنفضة صغيرة فوق نمرقة بجواره، يرفع بصره، وأخيرًا ينطق:

– أريد أن أتزوّج دعاء يا عم صالح؟

***

في غرفةٍ كبيرةٍ منحوتةٍ في الصخر، وسط إضاءة منبعثة بوهن من قناديل عُلِقت بالجدران؛ يقعد ياسين على كرسي خشبي كبير، مرتديًا منامة حريرية بيضاء، وجهه شاحب، وعيناه شاردتان، مستقبلًا مدخل الغرفة المظلم، وخلفه سرير في وسط الغرفة، مفروش بملاءات بيضاء، ووسائد نظيفة مرتبة.

فجأة؛ تظهر بجانبه على منضدة وثيرة؛ علبة لفافات تبغ فاخرة، وقدّاحة ومنفضة من النحاس؛ يبتسم، ويتناول منها لفافة بلهفة، يشعلها، ويتمطّق دُخانها الذي يتسرّب نيكوتينه إلى خلايا

عقله بشغف، ثم يسند قذاله إلى أعلى حافة الكرسي، ويغمض عينيه بسبب دوار الدخان بعد الحرمان منه لأيام.

– أحضرتُ لك سجائرك كما تمنيت؛ كي تتأكّد أننا لسنا وحوشًا كما تظنوننا، ولكننا محققو أمنيات.

يفتح عينيه؛ لا يجد أحدًا حوله، يقول مُبتسمًا:

– شكرًا لكِ أيتها الملكة الجميلة.

لا يدري كيف قالها، تتعالى ضحكات الملكة، تقول:

– الآن جميلة؟ أما كانت حبيبتك أجمل مني لما كنّا بالقبو ليلتذاك؟

يصمت وتصمت الملكة أيضًا، فلا يدري بماذا يجادلها؟ تنتهي أول لفافة تبغ، يخرج أخرى، يلتقمها، ينظر فلا يجد القدّاحة، يزفر حانقًا وفجأة؛ تُشعل نارًا أمام وجهه؛ ينتفض فزعًا؛ إنها القدّاحة، يسمع ضحكاتها؛ تحلِّق القدّاحة من حوله مشتعلة، يظل يراقبها بحذر، يشعر بدوار، تتعالى ضحكات الملكة: «ما هذا الهراء»؟

تتوقّف القدّاحة أمامه، وتقترب من لفافته، فيشعلها، ثم تعد مكانها فوق المنضدة، يصدح صوت الملكة:

– سأريك نفسي على حقيقتي، لتحكم مرة أخرى؛ هل أنا جميلة حقًا كما قلت آنفًا أم لا؟

ويلي. يفكِّر: «أستظهر الجنيّة بخلقتها الحقيقية؟ يا الله أُلطف بحالي».

– هل أنت مستعد أيها العاشق الولهان؟

تسأله الملكة، ولكن بماذا يجيبها، فقد قرّرت وستنفِّذ، ليس أمامه سوى الامتثال والتعايش، في هذا المكان البعيد عن دعاء؛ كل شيء يشبه كل شيء، وكل شيء في حقيقته لا شيء بالنسبة إليه، فليراها، ويُصدم كبشري صدمة قويّة، عندما يرى حقيقة المخلوقات العاقلة التي تُشاركنا الحياة على الأرض: «هاه؛ بل تشاركنا عقولنا وأجسادنا، ربما كان الإيمان هو ملجأ البشر الوحيد، ملجئ الوحيد».

– سأدخل عليك الآن من الطرقة المظلمة، هل أنت موافق؟

يتململ، يتلعثم، يحتقن وجهه؛ ينطق:

– موافق.

تدخل الجنيّة عليه من المدخل المظلم وكأنها كتلة تنفصل عن ظلام المدخل؛ مخلوقة سوداء قصيرة تقترب منه؛ يجفل من موضعه رعبًا، تسقط لفافة التبغ منه، يقفز إلى نهاية الغرفة؛ يغمض عينيه، يدفن رأسه في حجره، ويتكوَّر على نفسه بركنٍ من الأركان يرتجف بشدّة، ويهذي.

لم يدر بخلده؛ أن الجميلة التي رآها ليلتئذ في كامل زينتها، حقيقتها بتلك البشاعة؛ تشبه قرد «الغوريلا» بكثافة الشعر الطويل الذي انتشر على جسمها، ورأسها الضخم، وشعرها المنكوش المشعث، وأذنيها الكبيرتين، وعينيها الجاحظتين، وحدقاتهما اللتين كحدقتي الأفعى تشعّان رعب، وأنفها المفلطح بفتحتين واسعتين، وذاك الزغب تحت أنفها، وفمها الواسع البارز

قليلًا عن وجهها، وأنيابها الطويلة البارزة من فمها، وثدييها الطويلان المتدليان كالقردة، وعرفها الأحمر الذي يشبه عرف الديك فوق رأسها، وذراعيها الطويلان، وأصابع يديها التي تنتهي بأظافر كأظافر القطط، وأصابع رجليها التي تنتهي بمخالب كمخالب الصقور، ورائحتها النتنة التي لا تطاق، وقِصر قامتها المفزع.

أين النهدان اللذان كادا ينفجران من ارتجاجهما؟ يتساءل في نفسه: «أين الجمال والرقّة؟ أكل ذلك وهم»؟

تقترب منه وضحكاتها تثير خفقات قلبه؛ تجده يرتجف؛ تصمت، تقعد على السرير وهو قدامها، تقول بامتعاض مقزز:

– أنا آسفة، لقد فهمتُ الإجابة من ردّة فعلك هذه؛ أنا دميمة بالنسبة إليك كبشري؛ أنتم أجمل منّا بكثير، أعرف وأعترف، ربما لذلك نحقد عليكم.

تقولها وتعد لضحكاتها، وياسين لا يزال متكورًا بركنه في الغرفة دافنًا رأسه بحجره يرتجف، تطرق الملكة فينة ثم تقول:

– نحن باستطاعتنا التجسُّد في هيئة أي مخلوق جميل أو قبيح، لكن حقيقتنا كما رأيت قبيحة، عمري ثلاث آلاف سنة وتبقى لي مثلهم وأكثر، تعرف لو أنك أحببتني بصدق لحققتُ لك كل أمنياتك وأحلامك؛ كل ما تمنيت وما تتمنى؛ أستطيع في دقائق أن أنقلك إلى أي مكان في العالم، أستطيع في دقائق أن أفتح لك كنوز الأرض المرصودة، أستطيع في دقائق أن أجعلك تمشي بين الناس مختفيًا عن أبصارهم كما نُخفي أنفسنا عنكم، أستطيع في دقائق أن أهبك القوة الخارقة فيخضع الجميع لك –ثم تزفر بضيق–

صدقني كل ما تحلم به البشرية من قوى خارقة أستطيع أن أجعلها مِلك يمينك.

يستفيق ياسين قليلًا، وبصوت متهدِّج مُنهك دونما تململ من انكماشته يقول:

– لا أريد قواكِ الخارقة، فقط أريد العودة إلى أهلي وحبيبتي، صدقيني هذه كل أحلامي، وكل أمنياتي.

– أليس هناك ثمّ أمل في أن تحبني؟

تقول الملكة بصوت لا يكاد يُسمع، فلا يجيب، فتضيف في خذًى:

– إذًا لقد فهمت، ثم تدمع عيناها دموعًا ما إن تنزل من عينيها إلا وتتبخّر، ثم تضيف: «غريب أنت أيها البشري؛ تفضِّل حبيبتك الإنسيّة عن ملكة من الجِن ستهبك القوّة والملك، تفضِّل أن تحب ضعيفة نكَّارة للجميل؛ مع أول هفوة منك تنسى كل جميل فعلته معها ولا تتذكّر لك سوى تلك الهفوة، تفضِّل من تذيقك شتى ألوان الآلام والعذاب عن قوية طائعة ستهبك كل وقتها وخيرها».

بحنق دون أن يرفع وجهه؛ يقول ياسين:

– عمركِ ثلاثة آلاف سنة وتبقى لكِ مثلهم وأكثر، بكم ستضحين من أجل القضاء عليّ وعلى قوتي؟ أربعين سنة أو أكثر أو أقل، وبعد موتي؛ تضحين للمئات من بعدي حتى تحن نهايتك بعد آلاف السنين؛ يبدوا أنكِ سخيّة في حبكِ لأبعد الحدود، دعكِ من هذا الهراء.

– أتعرفون رجال البشر؛ لماذا تخونكم نساءكم؟ لأنكم تريدون وفائهن لكم حتى بعد موتكم، وهذا هو عين الهراء.

لا يجيب...

فتبدأ في التجسُد إلى الهيئة البشريّة التي رآها بها ليلتئذ بالقبو؛ مرتدية قميص نوم أسود قصير، ضيق؛ يكاد نهداها المنتفخان ينفجران منه، وشعرها الأحمر منسدل على كتفيها العاريين لا يتعدى خصرها.

– قم لا تخف، لقد لبست القناع البشري الذي تفضِّله؟

لا يتململ، فتضف:

– انهض سأشعل لك لفافة تبغ.

يرفع ياسين رأسه ببطء وحذر؛ يجدها ممسكة بلُفافة تبغ مشتعلة، ينتصب ويأخذها منها في هدوء، لا يأبه لقناعها البشري الجميل؛ يتحرّك ليقعد على الكرسي، تقول:

– كنت قد أتيتك بخبر سيفزعك فزعة أشد من التي أفزعتها لك منذ قليل؟

– لا أعتقد أن هناك أفظع منها، ثم يسترح في الكرسي مُضيفًا: فقلبي ما زال يرتجف؛ كفّي عن محاولاتكِ.

تُطرق رأسها مُتمتمة بتلقائية:

– سامحك الله.

– الله، أتؤمنين بوجود الله؟

– أنا لا أؤمن إلا بقوتي؛ فهي شيء أراه كل يوم، فهذا العالم لا تحكمه سوى القوة، أما الإله فإن وجدَ فيقتصر دوره على المُشاهدة في صمت.

– فوق كل ذي قوة قوي.

– دعك من هذا الجدال؟

تنهض قائمة، تدلف صوبه تتهادى الخطى، تقف خلف الكرسي، وتميل إلى أذنه توشوشه:

– الليلة عُرس حبيبتك، دعاء.

ينتفض ياسين واقفًا، يمتقع وجهه ويتكدّر غير مصدِّق لهذيها الذي تخطّى كل الحدود، تلك الكاذبة لن تهدأ أبدًا؛ لذا لابد من إيقافها، يشر بسبّابته صوبها محذِّرًا، يزدرد ريقه:

– أنت شيطانة كاذبة، تتمنين أن أكرهها وأصدق ترهاتكِ وهذيانكِ.

تتركه ثم تعد لتقعد على حافة السرير؛ تداعب خصلات شعرها وتتأمّل فخذيها المنحوتين من قالب زبد، ثم تلتفت إليه، تجحظ عيناها، تتحوّل لعيني أفعى، وصوت فاق الفحيح:

– لن تتوقّع من هو العريس الذي حلّ محلك.

يبتلع ريقه، ينهدّ قاعدًا إلى الكرسي، يشيح بيده، يقول بلهجة من لا يبالي:

– أكملي كذبتكِ وتلفيقكِ وقولي أنه صديقي عامر لأكرهه هو الآخر.

يعود وجهها إلى حالته؛ تضحك فيرتج نهداها، تقول:

– كيف قرأت ما برأسي؟ هل عِندك الحاسة السابعة أم عندك خادم من الجن يتجسّس على أفكاري؟

يقف ياسين حانقًا مرة أخرى؛ يلتفت إليها، يمد سبابته صوبها محذِّرًا، يصيح فيها:

– أقسم لكِ بإلهي الذي لا تؤمنين به؛ لو أن هذا ما حدث بالفعل لأضاجعنكِ على هذا السرير، وبهيئتكِ الحقيقية.

7

بعد صلاة العشاء؛ تحت عشرات من عناقيد المصابيح المضاءة والمختلفة الألوان؛ يبدأ دق الطبل والمزمار في سرادق كبير ينتصب بأكبر ساحة في القرية، يتراقص فَرَس بنيّ يمتطيه رجل بجلباب وسط الساحة على دقّات الطبل بانسيابية وإتقان، ومن حوله الشباب والأطفال مصفِّقين.

بعيدًا عن الساحة يطلق الرجال النار من بندقياتهم ومسدساتهم لأعلى فرحين ومهنئين، تزدان الرجال بجلابيبها وقفاطينها وملاحفها وعباءاتها النظيفة، ويقعدون بالساحة في حلقات فوق المفارش والحصير يتضاحكون ويتسامرون، وآخرون جالسون على الكراسي المعدنية يتحلقون منضدات خشبية؛ وتدور عليهم الغلمان بالدخان والكيف وجمرات الفحم للنرجيلة، وغلمان آخرون يدورون بالشاي والماء وأطباق الفاكهة أو المزّة، ويدور بائعُ البيرة بصندوقه يوزّع للحضور وابتسامته لا تفارقه.

يظهر العريس في جلبابه الأبيض الجديد، وعمامته البيضاء الملفوفة بحذق، وشاله الأزرق يلف رقبته، وحذاءه الأسود اللامع يحتضن قدميه، يرفع يده محييًا الضيوف، وابتسامة واسعة تحتل تقاسيم وجهه.

– مبارك عليك دعاء يا خائن؟

يتسرّب الصوت من خلفه رغم ضوضاء العُرس؛ يلتفت عامر مُبتسمًا، يقول ممتعضًا:

– بارك الله فيك يا مصطفى ولكن لا داع لأي مزاح فليس هذا وقته يا صديقي؟

يقترب مصطفى منه، يشيح بيده لأعلى:

– بالطبع فأنت بالغد ستقتل حلم صديقك العزيز... يقاطعه عامر بذات الابتسامة وقد اتسعت:

– تعال جانبًا لنتلافى سوء الفهم؟

يأخذا كرسيين، ويتحرّكا بعيدًا عن جلبة العرس، يقعدا وخلفهما الساحة بأضوائها الساطعة، يطرق مصطفى رأسه ويصمت، فيقول عامر:

– تزوّجتها لأحافظ عليها لأجل صديقي؛ ربما طالت غيبته، وكي لا يتزوجها غريب.

يضحك مصطفى، ثم يقول بصوت مهدود:

– ما صدمني حقًا هو كيف وافقت دعاء، وكيف وافق أبوها؟

– القسمة والنصيب يا صديقي.

– بل إنها كتب السِحر يا صديقي. يقولها مصطفى ثم يتكدَّر وجهه مُضيفًا: مؤكد أنك سحرت لهما، مصدوم أنا من نذالتك، جد مصدوم صدقني.

يقف عامر ممتعضًا، ويسحب علبة الدخّان من جيبه، ويخرج منها ثم يمدها له؛ لفافة محشوة بمخدِّر الحشيش:

– خذ هذه يا صديقي، وعندها ستزول آثار الصدمة سريعًا.

يأخذها مصطفى بوجه ممتقع، يغادره عامر إلى العرس، ويتركه سادرًا: كيف يتحوّل عامر بهذه السرعة إلى شره؟ يتساءل مصطفى في نفسه: كيف يطمع في حليلة صديقه؟ ياسين أعز أصدقائه، توأمه، مؤكد هي كتب السِحر التي غيرته، ربما مسَّه جان، أو جُنّ في عقله. يتأمَّل مصطفى اللُفافة: «سأحاول تدخين هذه السيجارة؛ يقولون أن للحشيش سحر، ولا يفل السِحر إلا السِحر».

***

يقف الحاج صالح بالفناء في جلبابه الأزرق الجديد، وعمامته البيضاء الناصعة؛ تمر النسوة من جواره داخلات الدار يزغردن ويهللن ويهنئن، يقول لإحداهن:

– قولي لأم دعاء أني أريدها بالخارج؟

بعد لحظات تخرج زوجته إليه؛ ترفل في عباءة سوداء حريرية، موشاة بكلفة مذهبة، يقعدا على دكّة في ركن بفناء البيت بعيدة عن ازدحام النسوة بالداخل وبالمدخل، وفي إضاءة واهنة ساقطة من مصباح عمودٍ كهربائي ليس ببعيد؛ يطرق صالح رأسه؛ تنظر له زوجته بدهشة، تقول:

– هل استدعتني، وجعلتني أترك العروس والنسوة؛ كي تصمت؟

يرفع رأسه؛ يقول بحزن عميق:

– ماذا فعلنا بدعاء بنتنا الوحيدة يا أم دعاء؟

– وهل فعلنا خطيئة لا سمح الله؟ ستتزوّج كأي فتاة على سنّة الله ورسوله.

– وياسين؟ ياسين الذي ضحّى بحياته من أجلها.

– ها أنت قلتها؛ ضحّى بحياته بمعنى أنه لم يعد ضمن الأحياء، وإن شاء الله في ميزان حسناته، وأنت سيد العارفين بأن «الحي أبقى من الميت» فهل كنت ستتركها فريسة للعنوسة بانتظار من لن يأتي؟

– لهجتكِ تخيفني.

– لا تخشَ شيئًا يا أبا دعاء؟ ما دامت البنت قد وافقت فهو الخير إن شاء الله.

– يا عمّة أين أنت؟ هل هذا وقت حب مع عمي صالح؟

تقاطعهما فتاة من بعيد ثم تضحك؛ تنهض الأم وتربت على كتف زوجها، تقول:

– خلِيها على الله؟ سأذهب لأتفقّد الحضور.

يشرد الحاج صالح مُتمتمًا:

– لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

***

دعاء جالسة على كرسي وحيد في باحة الدار؛ مرتدية عباءة ملوّنة بالورود ومطرّزة بخطوط طولية من الخرز ومحلاة بالكلفة،

وشعرها الناعم منسدل فوق كتفيها، وتتحلقها الفتيات والنسوة؛ جالسات فوق البسط، تتربّع إحداهن متأبطة الطبلة، وتدق عليها بحماس مرددة الأهازيج: «أيوة يا واد يا وِلعة؛ خدها وخش التِرعة».

تتراقص بعض الفتيات من حولها بثيابهن الجديدة الملوّنة، وبعضهن يتضاحكن ويتسامرن والبعض يصفقن ويتابعن من يرقصن، وفتيات أخريات يدُرن على الحضور بصينيات رصت عليها أكواب الشراب.

يقف ياسين مستقبلًا دعاء؛ يتأمّلها، يراها تبتسم، لا يصدِّق: كيف خانتني وكيف خانني صديقي؟ كيف حدث كل هذا؟ لماذا لم تنتظر؟ ألم يفهمهم الشيخ طايل؟ هل اعتقدَت أنني مت؟ هل تناست حبنا؟ هل أعلموها بتضحيتي من أجلها ورغم ذلك لم تكترث وتزوَّجت صديقي؟ وكيف لعامر أن يفعلها؟ كيف يطعنني في ظهري؟ كيف يحدث كل ذلك في أسبوع فقط، ما عدتُ أفهم شيئًا؛ كيف سأنظر في وجه الجنيّة ثانية، يا لحماقة البشر.

تدخل امرأة متشحة بالأزرق إلى باحة المنزل تحمل فوق يدها طست الحناء؛ مغروس بها عدة شمعات مشتعلات؛ مزغردة مهللة، يدمدم ياسين:

– إذًا مبارك عليك يا ابنة العم، أدامكِ سعيدة فذلك جل ما أتمناه لكِ.

تقترب حاملة الحناء من ياسين، ينظر إليها، ولكنها تواصل طريقها من خلاله، وكأنه شبح أو روح بلا جسد، حتى دعاء لا تشعر بوجوده، يتعجَّب ياسين ويتذكَّر أن الجنيّة أخفته بسحرها، ونقلته

في لحظات دون أن يشعر إلى العُرس ليرى بأم عينه زواج حبيبته، وليتأكَّد من صدق ما قالته له عن نسيان «دعاء» له، يتمتم بغصّة في الحلق:

– الآن فقط تسنى لي التأكد من غدر ونذالة البشر، وصدق حديث الجنيّة.

وفجأة؛ تنظر إليه دعاء مندهشة وكأنها تراه، ثم بصوت مسموع تناديه:

– ياسين؟

***

يستفق ياسين في غرفته الصخريّة فوق سريره؛ يقعد ليستجمع قواه، يشعر بخَدَر في كامل جسمه، ينظر حوله، يقول بوجع وتقاسيم وجه مُتكدِّرة:

– لقد رأتني، ونادت عليّ، كيف حدث ذلك؟

– لا تأبه يا حبيبي، تقولها الملكة ثم تضيف: «غلطة مطبعيّة» هكذا تقولونها في مثل هذه المواقف معشر البشر.

ثم تدخل عليه في هيئتها البشريّة؛ ترتدي منامة حريرية بيضاء ضيِّقة وبأكمام، وقد عقصت شعرها الناعم إلى الخلف؛ تحمل على يديها صينية عليها أطباق طعام، ينظر ياسين إليها ثم يطأطئ رأسه...

تبتسم وتقترب منه ثم تضع الصينية أمامه، ينظر إلى الطعام بتأفف...

تقول:

– هذا طعام بشر لا تخشَ شيئًا، أرز ولحم وخضار مطهو؛ هيا تناول الملعقة وألْتَهِم كل ما أمامك.

يمسك ياسين الملعقة، يتأمّلها فيجدها نحاسيّة ضخمة منقوش عليها التّاج، يتأمّل الطعام، يقول:

– ليس عندي شهيّة.

منتصبة هي بجوار السرير؛ تزفر ضجرة:

– لا بد أن تتغذَّى، ثم بمياعة وبرفع حاجبيها تضيف: «أم نسيت وعدك لي»؟

ينظر إليها متفحِّصًا جمالها الزائف، وهي منتصبة أمامه تبتسم:

– لم أنسَ وعدي، وحيث ذلك، فسآكل القليل وأشكركِ مقدّمًا على ذلك الطعام الشهي.

يمسك الملعقة ويبدأ بتناول الطعام شاردًا في كل ما رأى بالعُرس، تأكَّد بنفسه أن دعاء قد تزوَّجت وممن؟ من أعز أصدقائه، لم تنتظره، دعاء التي دافع عنها أمام الجنيّة لما قالت له: أنها لن تنتظره، ها هي الجنية الآن قد صَدَق كلامها وانتَصرَت عليه، وياسين انتهى بكل معاني الكلمة.

كان يتمنى أن يرى عامر ساعتها، لكن شروط الجنيّة كانت مجحفة؛ دعاء فقط هي المسموح أن يراها، أما الآن فعليه أن يفي بوعده، وليكن الآدمي الوحيد الوفي بين البشر، وليلفظ من الآن

كل فتات ذكريات دعاء؛ ضحكاتها، نداءاتها، لمساتها، وقبلتها، خارج وجدانه.

قلبه يرتجف، يتساءل في نفسه: «كيف سأضاجعها بهيئتها الحقيقية»؟

يريد أن يصرخ بأعلى صوته قائلًا: أنا إنسان مُحطّم.

ثم يبكي حتى الموت، ولكن مُضاجعة جنيّة وفاءً لوعده؛ لقطة شرف أخيرة، ربما يفتخر بها في الحياة الآخرة، في عالم الأرواح، أو أقلها أمام نفسه.

ينته من الطعام، يحمل الصينية ويضعها على منضدة بجانب السرير؛ يمسح يديه بمنديل أبيض بجواره، تضحك الملكة وهي تراقبه سادرًا، وكأنها تقرأ أفكاره، وتعرف حيرته، وتعرف قراره.

تهمَّ بخلع ثيابها، يقول ياسين بإصرار وتجهُّم:

– خلقتكِ الحقيقية من فضلكِ؟ هكذا كان وعدي لكِ؟

تتعجَّب من شجاعته، تتمنّى لو أن دعاء قد تزوّجت منذ أن حصلت عليه، يا لفرحة قلبها الذي يرفرف...

أخيرًا خضع الآدمي الضجر وانتصر حب الجان، وانتهت أسطورة ياسين ودعاء، وستبدأ الليلة أُسطورة جديدة؛ ملكة من الجن، وآدمي جميل.

تستلقي الجنيّة على السرير، ويقف ياسين بجانب السرير، يخلع جميع ثيابه، وينتصب عاريًا، تتأمّل الجنيّة جسده المنحوت بشبق، تتلكأ عيناها عند رجولته، فتعجبها فحولته، وتتراءى لها

صورها وهي سعيدة في أحضان ياسين، ثم تبدأ بالعودة إلى حقيقتها، يظل ياسين محملقًا إليها دون أن يهتز له رمش؛ يشعر بقسوة غريبة عسكّرت في قلبه، ربما كان بالحب ضعيفًا، والآن أصبح قويًا، ولكن؛ كيف يتحوَّل الإنسان إلى الضد بين ليلة وضحاها؟ كيف ينسى سني العشق؟ لم يعد يهتم بذلك كله، كل اهتمامه منصب الآن على الإيفاء بوعده.

يعتليها، يشدَّ الملاءة فوقهما، ويشعر بلهب جسدها الذي بدا له بدون عِظام، فيبدأ في جماعها كالمُغيّب وما إن ينتهي من أوّل مرّة معها؛ إلا ويجلس ونصفه السفلي مدفون تحت الملاءة، يشعل لُفافة تبغ، وتتبدى علامات السعادة على تقاسيم وجه الجنيّة المدثّرة بالملاءة جواره؛ يتسع فمها، وتبرز أنيابها، وتحرّك لسانها الطويل، لتستجمع ما تبقى من رضاب ياسين على شفتيها السوداوين بتلذُّذ. وفجأة؛ يلقى بلفافة التبغ المُشتعلة بعيدًا، وتعن له فكرة:

– تجسّدي في شكل دعاء؟

يأمرها فتبتسم، وفي لحظة تصبح هي دعاء حبيبته وعارية تحت الملاءة، وكلّها سعادة فقد أخذَتْ مكان دعاء، وبرضا ياسين!

يعتلي جسمها اللدن ببطء، يتسلّق تضاريسها إلى أعلى، يقترب بفاه من شفتيها؛ تُغمض عينيها، يتوقّف، تسأله بغنج:

– ما بك يا حبيب القلب؟

– ضعي كفاكِ متشابكين أسفل ضهركِ؛ أريد أن أستمتع بك أكثر؟

تفعل ما أراده مُبتسمة:

– لقد فعلت، هيا إذًا نستمتع بممارسة عشق العوالم المُتصارعة، إنسي وجنيّة، الحقيقة والخُزعبلات، الجسد والروح، الأحياء والأموات، أريد أن أنجب منك طفلًا يكن نموذجًا للاتحاد، وثمرة للعشق ما بين الجن والبشر.

لا يكترث ياسين لكلامها، وابتسامة خبيثة تتسلّل لتقاسيم وجهه الجامدة ببطء.

8

بالهزيع الثاني من ليل القرية؛ يُطرق الباب، تنهض أم ياسين؛ تدلف صوب الباب متثاقلة الخطوات، تضيء المصباح، وفي خيمة ضوئه الأصفر تبد متشحة بالسواد، شاحبة الوجه، تتمتم:

– يا رب، ليتك تكون أنت ياسين حبيب أمك وقد عدت.

نباح الكلاب بالخارج يتزايد، وكأنها هي من تطرق الباب.

تفتح البابُ؛ تشهق عندما تجد ياسين أمامها؛ شاحب الوجه، ملتفًّا بملاءة بيضاء؛ يرتجف بشدة ويبكي...

تختطفه أمه سريعًا في أحضانها، وتنتح، وتهرب الكلاب الضالة التي كانت تتبعه في ظلام الطرقات.

***

تشرق الشمس على القرية؛ تبدّد ظلام الشتاء البارد، فتبدو البيوت كقبور راقدة بين ضباب الحقول، يقترب من بوابة دار الحاج صالح؛ يطرقها مُبكِّرًا، فيدلف صالح إلى الفناء متثاقل الخطى؛ يفتح البوّابة وهو يفرك عينيه لطرد بقايا النوم العالقة بهما، وعندما يجده أمامه يبتسم قائلًا:

– خير يا عامر؟

– كل الخير يا عم صالح؛ لن نقيم العرس اليوم، وهيا بنا نذهب لنسلِّم على ياسين؟

يشهق الحاج صالح، ثم يصرخ بسعادة غامرة:

– ياسين ابن أخي حي وعاد.

***

«أنا بخير يا أمي صدقيني، ولكن دعيني أنم، أنم فحسب».

قالها ياسين لأمه لمَّا حاولت معرفة ما جرى له طوال الأيام المنقضية، ولكنه دخل غرفته؛ لبس ثوبًا، وطرح جسمه على السرير، وتدثّر باللحاف، ظلّ يتقلّب سادرًا الفكر على جنبيه، ولم ينم حتى الصباح، تصدح طرقات متتالية على باب الدار؛ ينهض ياسين؛ يقفز أرضًا؛ يركض صوب الباب، ويصيح من فوره:

– من بالخارج؟

يُقال:

– أنا عامر.

يستشيط ياسين غضبًا، يغمغم بحنق:

– سأقتُلك يا عامر؟

يعد أدراجه سريعًا، يدخل غرفته؛ يفتح الصوان، ثم يفتح حقيبة بداخله، يخرج بندقيته الكلاشنكوف، تشهقَ أمه المنتصبة على الباب بعد أن استيقظت، ولمَّا تراه خارجًا من غرفته ممسكًا بها والشرر يقدح من عينيه؛ تصيح فيه:

– يا بني أتقتُل صديقك وأخيك؟ أيّا ما حدث فهو صديقك وضيفك.

تقف أمه أمامه، يتفلّت منها؛ يفرقع الأجزاء، يفتح الباب؛ فيجد عامر أمامه فاتحًا ذراعيه، فيصوّب البندقية إلى وجهه؛ يقطب وجه عامر قائلًا:

– أهذا جزائي على فعل الخير يا صديقي؟

يصرخ ياسين:

– أي خير يا عامر؟ زواجك من دعاء ليس خير يا صديقي بل خيانة.

يبرز الحاج صالح أمام فوَّهة البندقية، فتنهد أم ياسين على الدّكّة تبكي، فيقول صالح:

– عامر لم ولن يتزوّج بدعاء.

يصرخ ياسين ضجرًا:

– لقد شاهدتُ ليلة الحناء بالأمس بأم عيني.

– يا بني كانت خُدعة، حتى أنا ودعاء وأمك وكل أهل القرية؛ خدعنا عامر من أجل إنقاذك من الجنيّة، ولم يعترف لي بالحقيقة إلا منذ قليل، بعدما تأكد من عودتك سالمًا، حمدًا لله على سلامتك يا ابن أخي؟

يصمت ياسين، يتصبب عرقًا، يتأمّلهم مندهشًا، يعد أدراجه، يدخلا خلفه، ويغلقا الباب خلفهما. يعطى ياسين البندقيّة لأمه في صمت، فتنهض لتعيدها، فيفتح عامر ذراعيه مُبتسمًا:

– سأحكي لك، ولكن تعال لحضن صديقك أولًا.

فيرتمي ياسين في حضن صديقه ينتحب:

– لقد قتلتُ الجنيّة يا عامر؛ لقد أرحت البشر من شرورها.

– أعرف يا صديقي، ولكني اشتقتُ إليك كثيرًا.

ثم يسلِّم على عمِّه ويحتضنه طويلًا، ثم تذهب أمه لتعد الشاي، ويقعدون جميعًا على الدكك في باحة الدار، يخرج عامر عُلبة السجائر، يعطى الحاج صالح لُفافة وياسين لُفافة ويشعل ثالثة، تحضر أم ياسين الشاي، ثم تعد أدراجها إلى غرفتها.

ينفخ عامر دخّانه، يرتشف من كوب الشاي، ثم يعيده إلى المنضدة أمامه، يقول:

– وقَعَ تحت يديّ كتاب «السحر الأسود»، كتاب عمره آلاف السنين، كان لدى الشيخ طايل –رحمه الله– وقد مات بمجرّد حصولي على هذا الكتاب، يقاطعه ياسين مُندهشًا:

– رحمه الله، ولكن هل تقصد بأن لموته علاقة بحصولك على الكتاب؟

– بلى، هو السبب؛ هذا الكتاب غريب يا جماعة؛ إذا ما تمناه شخص بصدق يقتل صاحبه ويذهب لمن يتمناه.

تعبس وجوههم، يقول ياسين متكدِّر القسمات:

– إذًا فهو خطر عليك يا صديقي، ولا بد أن نتخلّص منه.

يضيف الحاج صالح:

– خائفٌ عليك يا عامر، ولا بد فعلًا أن ننظر طريقة للتخلُّص منه.

يزدرد عامر ريقه، يحاول أن يبتلع التحذيرات، حتى لا تصل لعقله، فتشغله، يقول:

– لا تخشوا شيئًا، خيرًا إن شاء الله –ثم مستدركًا– المهم؛ حدث ما حدث، وفتحتُ الكتاب فوجدتُ العنوان: «حصِّن نفسك» فقرأت التعويذة التي تليه، وفُعِّل التحصين؛ قالت لي خادمة الكتاب: «الآن أصبحت آمنًا من عين الإنس والجن، ولا أحد يستطيع الاقتراب منك، أو معرفة ما تفكِّر به».

وقتذاك؛ طلبتُ من الخادمة أن أعرف معلومات عن ياسين والجنيّة، ومن وقتئذ وأصبحتُ أتابع ياسين من بعيد دون أن تدري الجنيّة.

فكرتُ في أن ألهيها وأضفي تمويهًا على خطتي لاستعادة ياسين، وأتتني فكرة زواجي من «دعاء» وكانت فكرة صائبة؛ حيث جعلتُ الملكة تتوقّف عن مراقبتي ومراقبة دار العم صالح؛ لأنها تريد أن تظفر بعشيقها ياسين فقط، وتريد أن تجعله يحبها بمحض إرادته، ولأنها متأكدة بأن ياسين لو عرف أن دعاء قد تزوَّجت فسيتغير، وأي تغير كان سيصب في صالحها هي.

كنت متأكدًا أن دعاء سترفض وعمي سيرفض؛ هذا أمر منتهِ، لذا وقعتُ في حيرة من أمري، لا أنا قادر على أن أكشف لهم الحقيقة، ولا أنا قادر على التنازل عن خطة الاستعادة؛ لذا سحرتهم جميعًا بقسَمٍ من الكتاب، كان اِسمه: «الطاعة العمياء»

وهي تجبر أي مخلوق على طاعتك في أي شيء تقرّره، قالت لي خادمة الكتاب: «إن الملكة سترسل ياسين ليشاهد دعاء في ليلة الحناء».

سارعتُ بزرع عشرات من جن الكتاب، وجعلت دعاء تتخيل ياسين لثوان، عندها اندهش ياسين ومن معه من خدّام الملكة، وفي هذه اللحظة تم التبديل بخدّام الملكة من الجن؛ خدّامًا من جن الكتاب؛ أقوياء وقادرون على التخفي والتشكل على هيئة أي فصيلة من الجان، واختطفنا خدَّامها.

– أكان يمكن أن تستعيدني لحظتها؟

سأل ياسين، فأجابه عامر مُبتسمًا:

– لا نستطيع؛ أنت كنت في حالة سحر ما؛ كنت مُنقسم إلى جزأين لا أدري كيف! –طال الاندهاش الجميع– هذا ما فهمته؛ فلو كنت أستطيع ذلك حينها لفعلت، المُهم؛ نجحتْ عملية التبديل، وعدتَ يا ياسين إلى الكهف، وحدث ما حدث بينك وبينها، ولكنك كنت تشعر بقسوة قلب غريبة أليس كذلك؟

يجيب ياسين:

– بلى!

– أحد خدامنا تلبّسك لحظتها، وأوعز لك بفكرة قتلها حينما تذكّرت كلام الشيخ طايل لك، وطلبتَ تجسُّدها في هيئة دعاء كي تفقد قوتها بالتشكُّل. قالت لك:

– ما بك يا حبيب القلب؟

– ضعي كفيكِ متشابكين أسفل ضهركِ؛ أريد أن أستمتع بك أكثر.

ففعلت ما أردت مُبتسمة:

– لقد فعلت، هيا إذًا نستمتع بممارسة عشق العوالم المُتصارعة، إنسي وجنيّة، الحقيقة والخُذعبلات، الجسد والروح، الأحياء والأموات، أريد أن أنجب منك طفلًا يكن نموذجًا للاتحاد، وثمرة للعشق ما بين الجن والبشر.

عندها قبضت بيدك على الملعقة، ورشقتها برقبتها عدة رشقات متتالية بسرعة فائقة؛ كان جسمها كالملبن لدن وقتئذ، فانغرست الملعقة بسهولة، وبعدها وجدتها تتفحم وتتحول لدخان أسود.

وقفت مذهولا؛ شعرتَ بالخوف، وتعجَّبت: «كيف واتتك الشجاعة لتقتل الملكة»؟ الحقيقة أن خدّام كتاب السحر الأسود ساعدوك كثيرًا، وبعد لحظات؛ فقدت وعيك وأغشي عليك، ولمَّا أفقت وجدت نفسك ملقى على طريقًا بأطراف القرية، والكلاب الضّالة تنبح صوبك مذعورة؛ فقد تلبّسك خدّام الكتاب، وطاروا بك وفتحوا بوّابة كونيّة، وأخرجوك.

– لحظة واحدة، يقاطعه ياسين مستفسرًا: «ماذا تقصد ببوّابة كونيّة؟ وأين ذلك الكهف؛ هل هو في الأرض، أم في عالم آخر»؟

يضحك عامر مُتعجّبًا:

– إن ما قيل لي يا صديقي من خدّام الكتاب مؤخّرًا: «إن الكهف في كون غير كوننا، عالم مكتمل يعيش على كوكب بموازاتنا خاص

بالجنْ؛ يروننا ولا نراهم، والبوّابة التي دخلت أنت منها يا ياسين؛ مجرّد بوّابة إلى عالم الجن الكوني، أما الجبل فلا توجد به كهوف؛ وحتى خدّام الكتاب يتحدثون بغموض عن هذا العالم؛ ذلك أنه عالمهم الغامض جميعًا». أنا الآن بدأتُ في فك طلاسم عالم الجنْ هذا، أتتذكّر يا صديقي حينما قلت لك أنه: «شغفي التعرّف على عالم الجن؟ وها أنا ذا بحمد الله أبدأ».

يدُهش الحاج صالح وياسين دهشة لا تُخفى، ولكن عامر يضيف:

– أما عن دعاء؛ فلم أتزوّجها كما قال لك العم صالح، أقمنا ليلة الحناء فقط، وسنشرح للناس تفسير ما حدث اليوم، وعلى كل حال؛ حمدًا لله على سلامتك يا صديقي.

يقول الحاج صالح مُبتسمًا:

– لا بد من زواجكما قريبًا؛ لن ننتظر حتى تكمل جامعتك، ها ما رأيك يا ياسين؟

يبتسم ياسين، وتنفجر زغرودة أمه من الداخل.

9

تُطلق أم ياسين زغرودة أثناء صعودها على السلم إلى الطابق الثاني، ومن خلفها أم دعاء وبعض قريباتها متشحات بالعباءات الزرقاء الفضفاضة؛ يحملن فوق رؤوسهن قفف مشحونة ومغطاة بأقمشة بيضاء.

تتوقَّف أم ياسين أمام باب شقّة الطابق الثاني؛ فتفتح دعاء مرتدية منامة حريرية حمراء؛ مُحمرَّة الوجه، موردّة الخدين، تحتل وجهها ابتسامة رائقة.

يزغردن النسوة، وتهتف أم دعاء:

– صباحية بيضاء يا حبيبتي أين زوجكِ ياسين؟

تنزل القفّة من فوق رأسها بعد أن تدخل، وترتدفها أم ياسين، ويدخلن جميعهن خلفها، وينزلن حمولاتهن مبتسمات، تحتضن الأم ابنتها، وتشرع في تقبيلها من خديها بنهم، وهي تردد:

– طمئنيني عليك يا حبيبتي؟

***

في الصباح الباكر؛ يقف ياسين في جلباب أبيض بالشرفة مشعلًا لُفافة تبغ ومتأملًا بيوت القرية الراقدة بين الحقول مثل الجاموس البري يرعى بالبراري، يشعر بوقع أقدام يقترب من خلفه؛

فيلتفت سريعًا؛ فتُطلق العنان لضحكاتها الرقراقة، فيعد لتأمّل القرية.

تقترب منه دعاء مرتدية قميص نوم أسود طويل، وشعرها متهدِّل على كتفيها، تحتضنه من الخلف، وتطوّقه بذراعيها، ويلتحما نهديها بظهره في نعومة تجعله يُغمضُ عينيه منتشيًا، وبعد لحظات شهيق وزفير مضطرب منهما، ودقّات قلبين متسارعة؛ تقول دعاء بحنين ورقّة:

– ليتني أمتلكُ كتاب السِحر الأسود ذاك؛ منذ الأمس وأنا أفكِّر في تلك الأمنية؛ لطلبتُ منه البساط السحري، وامتطيناه أنا وأنت فقط؛ وتجوّلنا بالعالم أجمع؛ نجمع شتى أنواع الورود، وأقبِّلك في كل بلد قُبّلة، وفي كل لحظة حضن.

يضحك ياسين قائلًا:

– آمل أن تكون أمنيتكِ تلك مجرّد مزحة؛ حتى لا يأتكِ الكتاب بالفعل ويموت عامر صديقي، وأندم أني حكيتُ لكِ عن سره.

تمتعض، تتراجع إلى الخلف، وبسخط تصيح:

– لا تستفزني؛ أنت تعرف جيدًا أن حبي لك حقيقة وليس بمزحة يا ياسين؟

يدقّ هاتف ياسين؛ تحضره دعاء سريعًا وتعطه إياه، ثم تعود لغرفة نومها عابسة، ينظر ياسين إلى الشاشة؛ فيجده عامر، يفتح الخط:

– صباح الخير صديقي العزيز؟

– عامر يا ياسين.

يجده صوت أم عامر، فيسألها والقلق يتناوبه بين فكيه:

– ماله عامر يا خالتي.

تصرخَ دعاء في غرفة النوم، فينقبض قلب ياسين، يركض إلى غرفة النوم؛ ينسى المُكالمة؛ فيجد دعاء منتصبةً بدهشة وفزع أمام كتاب ضخم غريب مُسجى فوق السرير، يتذكّر ياسين المكالمة، ينظر إلى الهاتف مُتوجِّسًا مما يتوقّع أن يقال له الآن، يضعه ببطء إلى أذنه؛ ينصت لأم عامر وهي تقول بصوت متهدج من النحيب:

– وبعدما فتحتُ غرفة نوم عامر منذ لحظات؛ وجدتُ عقاربًا غريبة الشكل كثيرة، منتشرة بالغرفة وسرعان ما اختفت، شهقتُ وارتجفت، ولمّا رفعت الغطاء عن عامر؛ وجدته جاحظ العينين، أزرق الوجه، مضرجًا بالدماء من لسعات العقارب، ولما جسسته تأكدتُ بأنه مات، مات يا ياسين؛ صاحبك مات.

يقع الهاتف من يده، تجحظ عيناه، يتساقط العرق من جبينه كزخّات المطر، وفجأة؛ يسمع صوتًا يقشعر جلده منه، يهمس في أذنه قائلًا:

– بالقطار كنتُ أراقبك ولكنك مُنِعتْ عني لسبب لا أدركه، وبذاك الكابوس؛ نجتْكَ أمك مني، وبالكهف منعتني عنك أمي – الملكة– ونجَّتك أيضًا، وبالنهاية قابلت الحب بالخيانة –التي هي من شيمكم– وقتلتها؛ لذا لن ينجيك مني هذه المرة مخلوق أيها الآدمي الخائن؟ هل أنت مستعد للعقاب؟

***

قصص أخرى

الغراب المسحور

لم أكن أصدق في السحر والشعوذة يومًا ما، لكن بعد ما حدث معي، تساءلتُ كثيرًا: هل هذه المرأة ساحرة بالفعل؟ أم أن هناك لغزًا مُطلسمًا لا بد من حله؟ لا بد أن هناك لغزًا؛ هذا شيء غير طبيعي بالمرّة؛ لا يوجد تفسير علمي لمثل هذه الحادثة أبدًا.

***

بدأت الحادثة حينما كنت أسكن في غرفة فوق سطح احدى العمارات بأطراف القاهرة، ولمَّا تغيَّرت مواعيد عملي بمصنع الملابس الذي كنت أعمل به؛ أصبحتُ أستيقظُ في الساعة السادسة صباحًا بعدما كنت أستيقظ في السابعة؛ وأصنع لنفسي كوبًا من الشاي، وأُسخِن رغيفين من الخبز، وأُخرجُ من الثلاجة الصغيرة، قطعة جبن على طبق، وأخرجُ لآكل الجُبن، وأحتسي الشاي، خارج الغرفة فوق السطح.

أول صباح يحدث فيه ما حدث، كان صباحًا هادئًا، والشمس على وشك أن تُشرق من خلف الأبراج الخرسانية العالية البعيدة؛ جلستُ على الكرسي البلاستيكي، أمام المنضدة الخشبية –حيث وضعتُ طعامي– أتمطق الجبن وأُبلّع بالشاي، وفي وجهتي عمارة ترتفع عن السطح، حيث أجلس، بثلاثة طوابق، كانت بيضاء اللون،

وبواجهتها شرفات واسعة بدرابزونات حديدية، وكانت قِبلة واجهتها عن يميني مثل واجهة العمارة حيث أسكن.

كنتُ مُنهمكًا في إفطاري، وفجأة دوى صوت ارتطام شيء ربما كان حجرًا بنافذة أو باب بالأعلى؛ رفعتُ بصري مفزوعًا، جُلت بعينيّ باحثًا عن مصدر الصوت، وتساءلتُ في نفسي: كيف لأي شخص أن يقذف حجرًا ويصل إلى مسافة ما بعد الطابق السابع؟

حطَّتْ نظراتي فوق غراب، كان واقفًا ينعق فوق درابزين شرفة إحدى شقق الطابق الثامن بالعمارة أمامي، وفجأة؛ حلَّق بعيدًا، ثم عاد ثانية شاقًا الريح بسرعة شديدة، وارتطم بمنقاره وبجسمه ومخالبه بباب الشرفة! وقفتُ أشاهده مشدوهًا، وتمتمتُ:

– ماذا يفعل هذا المجنون، وظل يكرر فعلته حتى فُتح الباب، وخرجت امرأة بدا أنها في الأربعين من عُمرها، ترتدي ملابس نومها القصيرة، وشعرها منكوش، أشاحت له بيدها، وصاحت:

– اذهب؛ لقد أيقظتني.

ثم دلفتْ المرأة إلى الداخل. وقف الغراب صامتًا فوق الدرابزين، وراح يتلفت حوله كالمجنون، وبعد لحظات حلق بعيدًا واختفى خلف البنايات العالية، وقد أشرقت الشمس.

جلستُ حائرًا، تدور برأسي شتى التأويلات لِما حدث أمام عينيّ، وتساءلتُ: «هل كان يوقظها؟ ولكن كيف؟ ربما كان غرابًا مدرب، ولكن هذا غير صحيح؛ لا توجد أغربة مُدربة، ربما مُصادفة لا أكثر»!

وأقسم لو أن أحدًا ما –وقتذاك– كان قد حكاه لي وأغلظ الأيمان ما صدقته، ولكنه للأسف حدث أمامي، وليس مرة فحسب، ولكنه كان يحدث كل صباح، وفي نفس التوقيت، وبات جليًا أن الأمر ليس مُصادفة، حتى بات شغلي الشاغل، فك طلاسم هذا الحدث الغريب.

فكرت في زميل يعمل معي بالمصنع، كان يدَّعي أنه يمتلك المقدرة على فك طلاسم أي حوادث غريبة، أو خاصة بالعالم الآخر، وكنت دائمًا أُكذِّبه وأتحداه، ولكن لا مفر من استشارته.

ربما يستطيع حل اللغز!

هكذا فكرت وقتها.

***

وذات يوم؛ في استراحة الغداء، جلست معه؛ كان شابًا نحيل الجسم، غليظ الرأس، ذا عينين واسعتين مخيفتين بعض الشيء، وبعد أن أكلنا، حكيتُ له ما حدث، فوجدتُ عينيه جحظتا واتسعتا بطريقة مُريبة مُقلقة، رغم اتساعهما الطبيعي المُخيف، وصمت قليلًا، ثم غمغم مع نفسه بعض الوقت، وبعد دقيقة؛ انبسطت أساريره، قال لي بلهجة مُلتحفة بثقة وخبرة وتمرس:

– الملعونة، ثم صمت هازًا رأسه يمنة ويسرة، ناظرًا في اتجاه آخر، وكأنه كان يخاطب شخصًا آخرًا يجلس معنا، ولا يظهر.

– من تقصد؟

سألته...

توقف عن هزِّ رأسه، نظر إليّ، قال بلهجة تشي بالعطف:

– خائفٌ عليك يا زميل من تلك المرأة، لربما تُسحِرك مثلما سحرت الغراب، لتذهب كل صباح وتضغط الجرس لتوقظها، أو تجعلك تُحضر لها الخُضر والفاكهة من السوق.

– هل لك أن توضح أكثر؟

– تلك المرأة ساحرة يا زميل، والغرابُ مسحورٌ بتعويذة طاعة ألقتها عليه، ليوقظها كل صباح.

ضحكتُ وقلت له:

– ولم أرهقت نفسها، وألقتْ تعويذاتها على غراب مسكين، وهي باستطاعتها أن تضبطَ منبه الهاتف، أو تشتري مُنبه.

– عزيزي، هذه الأمور لا ينبغي أن تُعملَ عقلك فيها، وإن كنت تحسب نفسك عاقلًا فلمَ أتيت طالبًا مساعدتي؟ لماذا لم تُرغم عقلك على إيجاد تفسير يا ذكي؟

طأطأتُ رأسي خجلًا، ثم قلت مستسلمًا:

– أعرف أن هُناك أمورًا عصيَّة عن العقل ومُستعصيَّة عن الفهم، مثل ذلك الحدث الغريب، لذا جئتك لعلي أجد ضالتي، والحقيقة فقد بدأتُ أصدقُ ما تقوله.

ابتسم بانتصار؛ نظر حوله وكأنه يخشى أن يسمعه أحدٌ من الزملاء المُنتشرين من حولنا يتناولون طعامهم فوق الموائد..

ثم قرَّب رأسه مني قائلًا:

– أتعرف؛ ربما كان هذا الغراب جنيًا مُتجسدًا في هيئة غراب، وهو عاشقٌ، وله لها ولكنها تُعذبه، أو تختبره، وقريبًا سترضى عنه، ولكني لستُ متأكدًا من هذه النقطة بعد؛ إذ لا بد لي أن أعاينَ مسرح الأحداث بنفسي، وأشاهد الغراب بأم عيني.

– ماذا تقصد؟

– أبات عندك الليلة.

***

ليتني لم أُخبره، ليتني ما طلبت مساعدته؛ لم أنم طوال الليل من الرعب والقلق؛ إذ كان دائمُ الغمغمة مع نفسه، وفي وهيدِ الليل أجده يُخاطب كائنات لا تظهر، ويضحكِّونه تارة، ويتشاجرون معه تارة، ويصمت تارة، ويصرخ تارة، حتى كدتُ أن أُجنَّ.

شعرتُ بأن الغرفة سُكِنَت بأشخاص من العالم الآخر، تلك الليلة؛ تركته ينام على السرير، واستلقيت على السجادة أرضًا، حتى كلَّت مني الضلوع، وتشبعت مفاصلي من ثلاجة البلاط، وكلما أُغمضت عيناي شعرتُ بأقدامٍ كأقدام القطط تطأني بسرعة غريبة، فكنتُ استيقظُ مفزوعًا، ولا أجد شيئًا، وكل ذلك من أجل فك الطلسم، وحل اللغز.

منذ الساعة الخامسة صباحًا، جلسنا فوق الكنبة بجوار بعضنا البعض، خارج الغرفة، وفي وجهتنا الشقة إياها؛ صامتين، مشدوهين، منتظرين قدوم الغراب المسحور، أو ربما الجني العاشق المتجسد.

وفجأة؛ وصل الغراب، وحطَّ فوق الدرابزين، ولم يهجم على الباب كالعادة، إنما ظل يحدج الباب في صمت، ثم ينظر إلينا في صمت أيضًا وكأنه تفاجأ بنا.

وقف صديقي واقترب من سور السطح ليتأمل المشهد عن قرب، وكان تارة يزر عينيه، وتارة يوسعهما، وتارة يُغمغم مع نفسه، نعق الغرابُ عدة نعقات ثم حلَّق بعيدًا.

– لقد خاف مني ذلك الجني العاشق المُتجسد في هيئة غراب.

أخيرًا؛ نطق بها زميلي بعد طول تأمل وانتظار، مُقررًا كنه ذلك الغراب، دلفتُ صوبه، وقفنا بجوار بعضنا البعض، وكنت أرتجف مما حدث.

لقد خاف منه الجني، لا أُصدق أني رأيتُ جنيًّا متجسدًا، كنت أشعر وقتذاك بأني سأتبول على ثيابي رُعبًا، ولكني تماسكتُ أمام زميلي حتى لا يفضحني بين زملائي بالعمل.

سمعنا صرير باب الشرفة، نظرنا سويًا، خرج زوجُ المرأة بمنامته البيضاء يتمطى، بدا رجلًا في العقد الرابع من عمره، ممتلئ الجسم، قصير القامة؛ نظر في كل الاتجاهات ثم ضحك، وهمّ أن يدخل لولا أن رآنا واقفين نراقبه، تلك هي اللحظة الحاسمة للتبول على الثياب من شدة الإحراج، قلتُ في نفسي، ولكنه ضحك في وجهينا، ثم صاح:

– هل رأيتم ذلك الغراب المُتخلف؟ مؤكد هو الذي أيقظكم مبكرًا، مُزعج أنا أعرف، كذلك هو لنا، غراب غبي؛ بل أغبى غراب رأيته في حياتي؛ بيدٍ أنني لم أقابل أغربة كثيرة في حياتي –كانت

يديه تتنافس مع لسانه للتوضيح والوصف– كل يوم يا شباب يأتي في نفس التوقيت صباحًا ليُهاجم انعكاس صورته على زجاج باب الشرفة العاكس كالمرآة، حتى نستيقظ على ضجته، فنفتح الباب فيرحل –ثم ضحك لمدة دقيقة– أما اليوم فقد بدلنا الأمس بالزجاج بابًا خشبيًا؛ لذلك لا أظن أنه سيزعجكم أو يُزعجنا مرة ثانية لأنه سيُحرم من رؤية انعكاس صورته للأبد، صباحكم سعيد.

ثم عاد لضحكه، ودخل الشقة.

الحقيقة لم أتمالك نفسي وقتذاك، ونتيجة لحنقي، وغيظي، وانفعالي، تهورتُ على الزميل المُشعوذ، وكانت النتيجة أنه حصل على إجازة مرضية لمدة شهر، ليحاولَ مُعالجة بعض مما أُصيب به من كسور وجروح ورضوض وكدمات.

***

كل هذا ليس غريبًا، إنما الغريب ما بات يحدث معي منذ ثلاثة أيام فقط؛ كل يوم الساعة السابعة مساءً، أجدني ذاهبٌ إلى سوق الخضروات والفاكهة، وأشترى أوزانًا مُعيَّنة، وأعرج على البقال، وأشتري كميات مُعيّنة من المواد الغذائية أيضًا، ثم أجدني متوجهًا كالمنوّم إلى العمارة إياها، وأستقل المصعد الكهربائي إلى الشقة إياها بالطابق الثامن، وأضغط الجرس، فتخرج لي المرأة إياها، وتأخذ مني الأشياء، وتبتسم في وجهي، وتعطيني ثمنها، ثم أجد نفسي مستديرًا قاصدًا غرفتي إياها في صمت وبله غريبين، وأسمعها تتمتم من خلفي ضاحكة:

– أتعبتك معي؟

وأراني أستدير وأغمز لها بعيني، وكأننا أصدقاء قدامى، وأشعر بوجهي مُلتهبًا، ومتصلبًا على ابتسامة واسعة، وأتمتم مُغادرًا:

– تعبكِ راحة يا ست الكل.

المسخوطة

يتراقص نور ذُبالة القنديل الواهن بالمشكاة، فتنتشر بالغرفة هالة نور أصفر، ذات مدى قصير، سرعان ما تختلط بأطرافها العتمة، لتنتهي بظلام حالك مُلتصق بالجدران وأركانها.

كذلك كانت تتراقص ضربات قلبي، وتتماوج بالغرفة ذات الجدران الطينية المُملّطة بالطَّفْل الأصفر، وسقفها المنخفض، وحِزَم بوصة التي اِسودَّتْ من قِدَمِها، وتَدلَّتْ بعض عيدانها التي دثرتها خيوط العنكبوت، وأنا واقفًا بانتظارها، أن تخرج من دهاليز دارها العتيق.

كنتُ قد طرقتُ الباب الخشبي القصير، المُتباعدة ألواحه التي نخرها السوس، عن بعضها البعض، وشعرتُ لوهلة أنه سيخر أمامي كومة من الخشب، رغم أني كنت طفلًا بالسابعة من عمري آنذاك، وليست بكفي عافية لإردائه أرضًا، ولكنه كان يهتز جراء طرقاتي، ويتخلخل.

وقتئذ؛ سمعتُ صوتها آتٍ من الداخل مكتومًا، وكأنه منبعثٌ من جُحر مُتغلغلٍ في أعماق الأرض، مثل جحور الأرانب: «تعال»، لا أدري لماذا انقبض قلبي، واقشعرّ جلدي، وتناوبتْ على مُخيلتي صورة «اللبؤة» وتساءلتُ: «تُرى هل تنقلب العجوز الدميمة إلى

(اللبؤة) التي تتجول بحقول الذرة الطويلة ليلًا؟ وتطلب مِمَّن تجده يسقي زرعه أن ترضعه بثديها الذين يكادان يلامسان الأرض، كما يُقال»، ولكن الناس تخاف من خلقتها السوداء، وعيناها الواسعتان، والشعر الكثيف على جسمها، ويحاولون الهرب منها، حينئذ؛ تصرخ صرخة مدوّية مُرعبة، تفج صمت الليل، ويسمعها النائمون على فرشاتهم، تجعل من يحاول الهرب منها، يتيبس رعبًا، ولا يتحرك من مكانه قيد أنملة، حتى تصله، وتبدأ في اِلتهامه حتى الموت، ثم تقطِّعه بالساطور، وتضعه بجوال، وتحمله على كتفها وتنصرف إلى دارها الذي لا يعرف مكانه أحد، ثم تطبخه هناك على مَهَل، وإن كان طفلًا تُخرج مُخه وتجففه ثم تسحقه كالدقيق وتصنع منه خبزًا لها، وتلقي بقية الجسد بالماء الساخن في القِدر الضخم فوق الكانون لينضج وتأكله.

بخطًى وجلة، دفعت الباب ودخلتُ فلم أجدها، ووجدتُ على يميني مشكاة بها قنديل، وأمامي فتحتان لا يتعديان في ارتفاعهما المتر ونصف، ولا يطُل منهما سوى ألسنة الظلام، فالعجوز لا تحتاج أطول من ذلك، فقامتها لم تكن قصيرة فحسب، بل كانت مُقوّسة الظهر، حيث يبدَّ في أحيانٍ كثيرة كحدبة ناتئة عن جسمها، حتى أنه كان يُخيل إليّ آنذاك أني أبدو أطول منها إذا ما اقتربت مني.

كنتُ واقفًا أتأمل القنديل تارة، وأنقلُ عيني من فتحة إلى أُخرى تارة، ومزدردًا ريقي تارة أخرى جراء جموح خيالي وشروده، منتظرًا خروجها من إحداهما، وبيدي صحفة صغيرة، ملفوفة بخرقة قماش، كانت أمي قد وضعت بها مغرفتي تقلية، وقطعة لحم،

وفطيرة بيضاء، وأمرتني أن أذهب بها إلى العجوز، التي تسكن في آخر دار بنهاية الطريق المُعتم، ومن خلفه الحقول الواسعة الموحشة ليلًا.

كان دارها كبير؛ لا تبين له نهاية في الظلام، وجدرانه قصيرة، من الطوب النيء، وكانت تعيش به وحدها، يقولون بالقرية أنها مسكينة، كانت مُتزوجة قديمًا، من رجل مسكين، لا يملك سوى هذا البيت، وكان عقيمًا، ورضيا بنصيبهما، وحدث أنه استيقظ الناس ذات صباح على صراخها المُرعب، ولمَّا دخلوا الدار عنوة تُرى هل كان ذلك الدخول سبب خلخلة بابها، وتنافر ألواحه.

وجدوا زوجها ميتًا ميتة غريبة؛ ولمّا سألوها قالت: «لقد افترسته (اللبؤة) حينما كان عائدًا من العمل بين الحقول ليلًا؛ سلخت جلده، ونزعت لحمه، وتركته عظامًا تكسوها طبقة رقيقة حمراء من اللحم كما ترون، وأنا أحضرته إلى البيت ليلًا»، كان في شرخ الشباب، وهي أيضًا كانت في ريعان جمالها، وطُغيان أنوثتها، ومن بعده، لم تتزوج أبدًا، ولا أدري أكان وفاءً ذلك؟ أم تطيرًا للرجال منها.

ما كان يستغرب له أهل القرية، هو كيفية مواصلة هذه المرأة الحياة، بلا عائل، وبلا مُنفق؟ يحدث أحيانًا أن يعطف عليها أهل الإحسان، ولكنها حالات نادرة، فقريتنا لا يوجد بها غير المساكين الكادحين، الذين يُشبهون بعضهم بعضًا.

– جدتي؟

ناديتُ كي أتعجلها، فسمعتُ صوتها يخرج من ذات العمق، ويأتني من الفتحتين معًا، تقول لي:

– اصبر يا ولد، أنا قادمة.

وضعتُ الصَّحْفَة على الأرض، بجوار جرار المياه، والأجولة الكثيرة المُتناثرة، والتي بدا أنها ممتلئة بالخبز اليابس، ثم وقفتُ أتأمل الظلام داخل الفتحتين...

وعندما ركزتُ بصري، أبصرتُ عينين مُضيئتين بكل فتحة منهما عين كبيرة، فُتحتا لوهلة في ذات الوقت، وصوبتا نحوي بغضب، ثم أُغلقتا سريعًا.

جفلتُ إلى الخلف مرتجفًا مطلقًا صرخة مكتومة، فتعثرتُ بجوالٍ ثقيل، صدرتْ عنه قضقضة عظام يتكسر، فسقطتُ أرضًا، وتوقف نبض قلبي، وغامت عيناي، وما عدتُ أبصر سوى خطوط متداخلة من النور والظلام، لحظات وسمعتُ بصعوبة، صرير الباب يُفتح، ثم محادثة بين أشخاص تشبه الوشوشة، وتخللها صوت كفحيح الأفاعي، وتحركت خيالات وأطياف من النور والظلام بعيني.

فجأة؛ عدتُ إلى الحياة شاهقًا، وسرعان ما وقفتُ أتلفتُ حولي مذعورًا.

– ما بك يا ولدي؟

قاطعتني العجوز، مُعلنة عن وجودها؛ كانت نحيلة الجسم، موشحة بالسواد، وعلى رأسها شاشٌ أسود مُهدَّل الأطراف من حولها، وشعرها الأبيض يلمع أسفله من ضوء القنديل المُنكسر عليه، وبوجهها خطوط وتجاعيد بعدد سنوات عمرها، التي لا

يعلمها أحدًا بالقرية أبدًا، وتلوح ابتسامة خبيثة على تقاسيمها الخابية، وعيناها تلمعان بوميضٍ مثيرٍ للقشعريرة، وتمسك بيدها جوال مُنتفخ، لم يكن موجودًا بالغرفة من قبل.

– ماذا حدث لي؟

ضحكتْ لمَّا سألتها، فخرجت ضحكتها خشنة كضحكة الرجال، لازمتها رائحة فمها النتنة، ثم قالت:

– لقد نمت يا ولدي، عندما تأخرتُ عليك بالداخل.

ثم اقتربت من الصَّحْفَة، قائلة:

– بلغ سلاماتي لأمك، واشكرها على التقلية واللحم يا حبيبي.

ثم تناولتها، ولكن كيف عرفتْ ما بداخله؟ تساءلتُ بها في نفسي حائرًا، ثم وجدتها تدلف صوب إحدى الفتحتين، فصِحتُ فيها ببلاهة طفل أخرق:

– أنا لم أنم، أنت كنتِ بالخارج وليس بالداخل، من عِندك بالداخل، وكيف عرفتِ ما بالإناء؟

عندئذ، وجدتها تستقيم ببطء، وفرقعة عظام ظهرها تعلو، حتى انتصبت وكأنها ما احدودبت يومًا، واكتست ملامحها جدية، وبدأت عيناها في الجحوظ، وأنياب فمها في البروز منه، ولكني لم أنتظر لحظة أخرى، وسرعان ما كنتُ خارج دارها، أركض صوب دارنا باكيًا، مرددًا: «العجوز هي اللبؤة التي تأكل العيال».

ولمَّا حكيتُ لأمي، ضحكت كثيرًا، وقالت لي:

– خيالك خصب يا ولدي، فعندما تكبر إن شاء الله، ستصبح مؤلفَ قصصٍ شهيرًا، العجوز مسكينة، إنما «اللبؤة» كانت امرأة، فمات أولادها جميعًا فجأة، وكانوا سبعة ذكور، فغضبت ولم ترضَ بقضاء الله، وقتلت زوجها، لذلك سخطت ونُسِخَتْ لبؤة، تشبه القردة والبشر، وتريد أن تقتل أي طفل أو رجل تراه، انتقامًا لموت أولادها، إنما هذه المرأة مسكينة، فقدت زوجها، على يد اللبؤة ذاتها، وهي من حكت لنا عن حقيقة اللبؤة هذه، وكما ترى يا ولدي، فهي تعيش حياة بؤس وحيدة، نم يا حبيبي نم.

ونمتُ من الخوف، وفي الصباح، كان فراشي مُبللا بكميات بول كثيرة، ولا أتذكر بوضوح كمية الأحلام المُرعبة؛ التي راودتني ليلتها!

كنتُ متأكدًا أن أمي لن تصدقني، وكل من حكيتُ لهم ما حدث معي، لم يصدقوني أبدًا، والآن تحققت نبوءة أمي وأصبحتُ مؤلف قصص، وها أنا ذا أحكي لكم وأعرف أيضًا أنكم لن تصدقوني.

ومرتْ الأيام، وكبرتُ، وعرفتُ بالمدرسة أن «اللبؤة» تعني: «أنثى الأسد» ولا يوجد بشرٌ يُمسخون إلى مخلوقات أخرى في هذا الزمان.

وذات يوم، منذ عشرة أعوام؛ انسربت رائحة نتانة من دار العجوز، ضايقت سائر أهل القرية، فدخلوا الدار عنوة، وفوجئوا بجثة العجوز مُتعفنة.

وحتى لا يُرهقوا أنفسهم، ويحركوها من مكانها وتتفسخ، دفنوها محلها داخل دارها، ولم يمس أحد من الرجال أي شيء بالدار، وأُغلق الدار على سرها، وانطوت سيرتها، مع السنين والأيام، وأصبحتْ الدار مهجورة.

والمُثير للريبة، هو ما حدث منذ ذلك الحين أيضًا، وهو توقف «اللبؤة» عن خطف الأطفال، وقتل الرجال.

كنتُ مسافرًا بعيدًا عن القرية، وقت وفاتها، وحمدتُ الله أنها ماتت، فقد كنتُ أخشاها، حتى بعدما كبرتُ، ولكن لا أدري ما الذي حَمَلني على أن أمر على دارها بالأمس، وأتأمله طويلًا، وعبثًا رحت أطرقه مرة تلو المرة، وفي دبر المرة الثالثة، ركضتُ صوب دارنا ألهثُ؛ لقد سمعتُ صوتها، الذي أتاني من قبل مكتومًا، كأنه منبعثٌ من جُحر مُتغلغل في أعماق الأرض، كجحور الأرانب، قائلة:

– تعال.

حبيسة المريخ

في ضوء قمر خافت لليلة من ليالِ الشتاء قارسة البرودة؛ عاد «سالم» من الحقل إلى الدار راكبًا حماره، مخترق الطريق الغارق في الضباب بين الحقول، وعلى أُذنيه تتناوب شتى أصوات الليل من صرير الجراد، وعواء الذئاب، ونباح الكلاب، والحمار يتحرك ببطء تارة، ويحرِن تارة أُخرى، ولسعات العصا تنهال من سالم على مؤخرته، وبكعبي قدميه يوالي لكزاته على بطنه، وتتحرك أُذناه في كل الاتجاهات الآتية منها الأصوات؛ وكأنه يخشى هجومًا مباغتًا من كلب أو ذئب كعادته في كل إياب لهما بالليل، وفي كل مرة يصيح سالم به غاضبًا:

– حمار جبان، حتام أتحملك؟ لقد ضقت ذرعًا من مكرك، يا رب متى تفرجها عليَّ وأبدل بالمكَّار هذا سيارة، أو دراجة نارية؟

يَقْطُنُ سالم مع أسرته في دارٍ من طابقين تقع بين الحقول بأطراف القرية، وما إن وصلها حتى تخلص من الحمار وقيَّده بالزريبة، وصعد السلم الخارجي، واختلى بنفسه في غرفته بالطابق الثاني.

أحضر من الصوان الكتاب الذي وجده من قبل بأحد المغارات الجبلية شرقي القرية، وقتما كان يبحث عن أي كنوز أو أي وسيلة لجلب المال، وكان آنذاك بصحبة رهط من الدجالين والمشعوذين؛

هكذا كان إحساسه بهم، ورغم ذلك واصل معهم على أمل أن تصدُف معه ولو مرة وتُفرج بعدما كان يظنها لن تُفرج، ولكنها لم تصدُف ولم تُفرج، بل أحيانًا كان يصرف من جيبه عليهم، واعتقد وقتذاك بأن ذلك الكتاب لابد كتاب سِحر، وستتحقق أمنياته أخيرًا، وسينفك نحسه للأبد، فأخذه دون أن يشعروا به، وخبأه بجيبه، واستعد لهذا اليوم الشتوي، الذي نامت به أسرته مبكرًا بسبب البرد والضباب؛ كي يفتحه ويُحضِر خُدَّام الكتاب من الجِنْ؛ كما كان يشاهد رفاقه المشعوذين يفعلون أمامه من قبل، ليكتشف به الكنوز والخبايا ويخرجها، ويبيعها ويتغير الحال ويتخلص من حماره المكَّار، ومن وقت عثوره على الكتاب صار يتهرب من المشعوذين، ويتقاعس عن مرافقتهم حتى انفصل عنهم تمامًا.

أشْعَلَ الفحم بالمجمرة، ونثر البخور فوقه وتركه أرضًا غير بعيدة عنه، رفع وجهه فبدا شابًا بالسابعة والعشرين من عمره، شاحب الوجه، هذيل البنيان، مرتديًا سروالًا من الصوف، ومعطفًا مهترئًا ثقيلًا.

جلس متربعًا على الزربية الخضراء، بَدَتْ الغرفة من حوله كبيرة ذات إضاءة خافتة تَشِعُ من قنديل معلق بالجدار، وكان في جانبها سرير متهالك وصوان صغير، وبالجانب الآخر الزربية حيث يجلس، وغير بعيد عنه نَمرَقة مسجاة، ومن خلفه الباب.

جَذَبَ النَمرَقة أمامه؛ وضع فوقها الكتاب، فوجد غلافه من جلد سميك بني اللون، مرسومة عليه بوابة حجرية مزخرفة، ومن حولها حراس بحرابهم، وحروف هيروغليفية ورموز، فتحه، فوجد صفحاته من جلد أصفر رقيق، وعلى وجه أول صفحة بالكتاب؛

وجد نقش لمنمنمة صغيرة، بدا أنها رسمٌ للمجموعة الشمسية «درب التبانة» وفي وسطها رُسِمَ مسارًا حلزونيًا منطلقًا من كوكب الأرض إلى الكوكب المجاور له الرابع بالمجموعة؛ كوكب المريخ دونما أن يقطع –ذلك المسار– بأي نجم أو كويكب آخر.

وكان هناك حزامٌ حول المريخ به بعض علامات مبهمة وحروف، وتُلحظ بصعوبة نقطة سوداء بنهاية المسار فوق سطح المريخ.

لم يكترث لهذا كله، ولم يفهمه، قَلَبَ الصفحة ليفهم أكثر؛ فتحركت وعادت أدراجها كما كانت تلقائيًا، قَلَبَها مرة أخرى، فعادت كما كانت ثانية، تَمْتَمَ حانِقًا:

– أَعْتَقِدُ أن خدام الكتاب بدأوا مداعبتي.

قَلَبَ الصفحة ثالثة، فكانت الصفحة التالية سوداء، وقبل أن يمعن البصر فيها، شَعَرَ بأن الغرفة تهتز بشدة، فنظر إلى ما حوله؛ فوجدَ كل شيء يتراقص عداه، قرر أن يتماسك ويتحمل من أجل تحقيق حلمه في الثَّراء.

فجأة؛ انطفأ القنديل من الاهتزازات، وأظلمت الغرفة؛ عندها فقط ازدرد رضابه، ولكنه فَكَّر إذا ما أصابه خوف؛ هلك لا محالة؛ لذا قرر أن يظل متمسكًا بالشجاعة لاجتياز تلك الاختبارات ليسيطر على قوة الكتاب، ومن ثم يطلب كل ما يتمناه.

مد يده، تَحَسَسَ الكتاب؛ تناوله ثم وضعه بحجره وأطبق عليه بكلتي كفيه؛ عندها تحول الظلام من حوله إلى فضاء مظلم تناثرت به النجوم والكواكب، وشعر بأنه داخل مركبة فضائية بلورية شفافة تنطلق به من الأرض وتجتاز الفضاء بسرعة فائقة، حتى

أنه لم يستطع الالتفات يمنة أو يسرة، وكأنه تجمد داخل جسده، صار يتنفس بصعوبة، وانخفض معدل نبضات قلبه، وفجأة؛ ظَهَرَ ذلك المسار الحلزوني المرسوم بمنمنمة الكتاب مضيئًا أمامه بعد أن ولجته سفينته الوهمية.

بعد لحظات وجد نفسه يقترب من كوكب المريخ، وشعر بأن مركبته الوهمية ستهبط به على سطحه؛ أحس ببرودة المناخ، وبدا المريخ لوهلة؛ أنه كوكبٌ صخري ذو جبال شاهقة، ووديان ممتدة، ويدوران من حوله قمران صغيران.

تبَدَّتْ تلك النقطة السوداء التي رآها فوق سطح المريخ بالمنمنمة أمامه كنقطة سوداء صغيرة ومن حولها جبال جليدية بيضاء، ولكن سرعان ما اِتْسَعَتْ النقطة حتى ابتلعته، وعندها فقط؛ فقد الوعي، وأظلمت الدنيا من حوله.

لا يعرف كم مر من الوقت؟ ولا يدري أين هو؟ وشعر بنفسه وقد بدأ باستعادة وَعْيه، وأحَسَ بخَدَر شديد طال جسمه، حاول فتح عينيه، وبالكاد فتحهما متألمًا، وما إن فتحهما حتى انْتَفَضَ واقفًا، وجال ببصره لما حوله وتمتم متسائلًا:

– أين أَنَا؟

وَجَدَ الكتاب ملقى أرضًا تناوله ودفنه بجيب معطفه، نَزَلَ من فوق مصطبة صخرية كان مسجيًا فوقها؛ دلف مشدوهًا لاستكشاف المكان من حوله، فبدا أنه كهف عظيم منحوت في الصخر الأحمر ذي البريق المعدني.

تقدم في السير متعجبًا وجد الكثير من برك واسعة مليئة بالماء، منحوتة بأرضية الكهف الصخرية، وعلى حوافها نمت شجيرات كثيرة مورفة خضراء اللون، جذورها ضاربة في القاع، ورأى بِركًا أخرى بها سوائل ذات ألوان داكنة تغلي وتبقبق وتتصاعد منها ألسنة البخار...

تقدم أكثر مخترقًا النور الأبيض الناعم المنتشر بالكهف متسائلًا:

– أين مصدره؟

اقترب من بركة، انعكستْ صورته على صفحة مائها، وجد فقاعات هواء كثيرة آتية من الأعماق البعيدة، اِغْتَرَفَ منها بيديه وشرب على مضض، تمتم:

– ماء غير آسن، لكن رائحته حديد.

وَقَفَ بين الأعمدة الصخرية العظيمة التي تنتشر بالكهف على مسافات متباعدة وتشبه إلى حد كبير الأعمدة بمعبد الكرنك؛ متأملًا الدقة التي نُحِتَ بها الكهف الجميل.

تقدم أكثر مخترقًا طبقات ضباب أحمر رقيقة تشبه السحاب بانبهار، ومن حوله البرك العجيبة، تَمْتَمَ مَشدوهًا:

– مؤكد أني أحلم، لا ليس حلم، إذًا ما كُنْهُ ذلك المكان؟ ربما كان المريخ بالفعل، ولكن كيَّفَ أتيت؟ الكتاب أجل، السر في الكتاب، ولكن المريخ لا ماء ولا هواء على سطحه، هل قلت سطحه؟ أنا لست فوق سطحه بل تحت سطحه.

وخَلَصَ إلى أنه بكهف عجيب منحوت أسفل سطح المريخ، والأدهى أن به ماء وهواء، وربما توجد به مخلوقات مفترسة، وشعر بالقلق، وتساءل:

– كيَّفَ نقلني الكتاب إلى هنا؟

قرر أن يفتح الكتاب ليجد ضالته، وقتئذ؛ جلس فوق مصطبة صخرية بجوار بركة ماء، وفتح الكتاب، وقلَب صفحة منمنمة الكواكب؛ فوجد الصفحة السوداء، أَمْعَنَ البصر فيها، فوجد بها رسم يشبه كف إنسان مشعة في ليل مظلم، وفوقها رسومات لنجوم وكواكب وحروف هيروغليفية كثيرة، تمتم:

– لربما وضعتُ كفي بالظلام دون أن أدرك فوق رسمة الكف فحملتني قوة الكتاب إلى هذا الكهف بكوكب المريخ.

وتساءل فيما سيفعله؛ أيعود إلى الأرض أم يستكشف المزيد؟ ولكن كيَّفَ سيعود؟ ورجح أنه ربما عندما يضع كفه على الكف المرسومة بالصفحة السوداء ثانية؛ يعود إلى الأرض في الحال.

عندئذ؛ وضع كفه، ولكن لم يحدث شيئًا، حاول مرارًا وتكرارًا ولم يحدث شيئًا، زفر ضجرًا:

– إِذًا فقد هلكتُ لا مناص.

ضاق صدره، وراح يندب حظه العاثر، ويرثي نفسه الهالكة، فجأة؛ تناهت لأذنه هَمْهَمَات تقترب من بعيد؛ فَزِع، دفن الكتاب بجيبه، واختبأ خلف أحد الأعمدة القريبة.

توقفت الهمهمات؛ تنفس بأريحية، ثم تواصلت ثانية عن كثب؛ اقشعر بدنه وتوالت خفقات قلبه، قال في نفسه: ربما كان مخلوقًا مفترسًا قاطنًا بالكهف فيفترسني.

توقف المخلوق يلهث غير بعيد عن العامود الضخم الذي توارى خلفه سالم، دعا الله في نفسه: «يا رب نجني».

قرر، سأواجه قدري، وليكن ما هو كائن، تَحَمَّسَ، وأظهر نفسه ببطء للمخلوق الرابض هناك، وعندما رآه؛ جَفَلَ رعبًا.

لقد كان مخلوقًا يشبه أنثى البشر؛ عَجوزًا تمشي على أربع، رأسها أصلع، وعيناها واسعتان حمراوان، وجهها أبيض شاحب جعد، هزيلة الجسم؛ ترتدي تنورة قصيرة من جلد بالٍ تواري بها عورتها، وصدرها.

وَقَفَ سالم يتأملها مأخوذًا، ولما رأته؛ جَلَسَتْ متربعة؛ دَعَكَتْ عينها، وراحت بدورها تتأمله أيضًا، وفجأة انخرطت في ندب ونحيب، وغمغمة بلغة غريبة، وظلت تشير بيديها هنا وهناك وكأنها طفلة وَجَدَتْ أبيها بعد سنين من التيه.

تَمَلَكَه شعور بالعطف عليها وإحساس بأنها من البشر، وتساءل في نفسه: إن كانت هي من الأرض حقًا؛ فما الذي أتى بها إلى هنا؟ وكيف تعيش وماذا تأكل؟

اِنْتَهَتْ من نحيبها؛ دَلَفَتْ صوبه على أربع، نَزَلَتْ بوجهها على قدميه تقبلهما مُتَمْتِمة بصعوبة.

– Take me out.

عندها نَزَلَ سالم أرضًا وجلس متربعًا وأجلسها أمامه ومَسَكَ بيديها وقبَّلهما، وفاضت عيناها بالدمع:

– Where is your ship?

تمتمت بها، عندها اِلْتَقَطَ سالم ملامح لغتها، لقد كانت الإنجليزية، إذًا هي امرأة من الأرض كما اِعتَقدتُ، وقد كانت لديه محصلة كلمات إنجليزية جيدة إلى حد ما، فحاول التفاهم معها ونجح.

كانت تظنه رائدَ فضاء، وكانت تريد العودة إلى الأرض؛ طمأنها بأنهما سيعودان إلى الأرض حتى تهدأ، وإن كان سالم يدرك تمام الإدراك بأنه سيمكث بالكهف حتى موته.

– أنا من مصر، من أي البلاد أنْتِ؟

سألها بالإنجليزية، فأجابت بصوت متهدج وبلغة عثرة:

– أَنَا من المملكة المتحدة، وأَنَا أحب مصر بلد الحضارة العريقة.

وأضافت بعد لحظات صمت:

– أعشق الحضارة المصرية وقد شاركتُ في بعثات علماء كبار للتنقيب عن الكنوز والآثار كثيرًا في مصر.

قال لها سالم ممازحًا إياها:

– أَنَا أشبهكِ كثيرًا، لقد شاركتُ في بعثات مشعوذين كبار للتنقيب عن الآثار وبيعها خارج مصر، ولم أوفق في مرة أبدًا.

وضحكا الاثنين كثيرًا، تذكر سالم أن بجيبه علبة سجائر؛ أخرجها، أشعل واحدة، وأشعل لها واحدة، سعلت في بادئ الأمر، ثم راحت تلتهمها بنهم حتى أنهتها.

نهضَ سالم وتبعته العجوز الإنجليزية على أربعتها، وجلسا فوق المصطبة الصخرية، وراحا يدخنان السجائر بنهم، وراح سالم يطمئنها أكثر فأكثر، ولما اطمأنت؛ استقامت مخارج حروفها واتَضَحَتْ لهجتها، سألها سالم:

– كيَّفَ أتيتِ إلى هنا؟

وجدها نزلت على أربع، ومشت أمامه متمتمة:

– اتبعنِ؟

تبعها، فابتعدا داخل الكهف، واجتازا الضباب الأحمر، والأعمدة الضخمة، والبرك المبقبقة، والشجيرات المورفة، والمصاطب الصخرية، وأكوام متناثرة من فتات الصخور؛ حتى وصلا إلى غرفة بنهاية الكهف.

صعدَتْ هي بضع درجات؛ حتى وصلت مدخل الغرفة، وتبعها سالم، دَخلا الغرفة؛ فبدت غرفة كبيرة منحوتة بالصخر مضيئة بضوء أبيض؛ منبعث من مشكاة بالجدار، وتنتشر بها أكوام من عظام حيوانات صغيرة في حجم القطط، وأكوام أخرى من جلودها.

اقترب سالم من المشكاة فوجد حجر ماسي مشع في حجم كرة القدم، هو المصدر لضوء الغرفة، كانت العجوز قد دَخَلَتْ غرفة أخرى بابها من داخل الغرفة الأولى، وبعد لحظات خَرَجَتْ وبفمها

كتاب، وجلست بالقرب من سالم فجلس... مسكت الكتاب بيدها، ولاحظت نظرات سالم لأكوام العظام والمشكاة، فأشارت إلى أكوام العظام، قالت:

– حيوان صغير موطنه الأصلي الأرض، أحضروه من زاروا الكهف قديمًا، وتأقلم على مناخ الكهف؛ كان غذائي المُفضل، أمَّا الماسة فهي حجر مشع مجهول الاسم، وقد تم توزيعه بجدران الكهف ليضيئه بطريقة عجيبة.

رفعت الكتاب بيدها، قالت:

– هذا ما أتى بي إلى هنا.

تأمل سالم الكتاب، فوجده نسخة طبق الأصل من الكتاب الذي يملكه، ذُهِلْ، قالت العجوز:

– هذا كتاب سِحر قديم، يفتح ممرات للانتقال بين الكواكب في لمح البصر، استخدمه بعض الكهنة بإحدى العصور القديمة في مصر –بلادك– للسفر بين الكواكب والمجرات، ونقل الأشياء من الأرض إلى الكواكب والعكس.

اِنْبَهَرَ سالم بتلك المعلومات التي يسمعها لأول مرة في حياته، فتحت العجوز الكتاب على الصفحة السوداء، قالت:

– إذا ما وضعت كفك هنا، تنتقل إلى الكوكب المحدد بالصفحة السابقة، وإذا ما أردت العودة تقلب الصفحة فتجد كوكب الأرض هو نهاية المسار –لم تقلب الصفحة لتوضح– ثم تقلب الصفحة مرة أخرى فتجد الصفحة السوداء وكف العودة، سألها سالم:

– لماذا لم تقلبِ الصفحة؟ ولماذا لم ترجعِ حتى الآن؟

قطبت حاجبيها، قالت بحزن:

– للأسف، الكتاب به صفحات الانطلاق فقط، أما صفحات العودة فقد قُدَّت منه، وهذا مالم ألاحظه قبل تورطي في هذه الرحلة.

ثم نظرت إليه سائلة: «هل أَنْتَ رائد فضاء حقًا؟ وإن كنت فأين سفينتك التي سنعود بها»؟

لم يجبها، صمت يفكر: «ماذا لو كان كتابي أيضًا قد قُدّت منه صفحة العودة»؟ الكتاب بجيبه بيّد أنه عاجز عن إخراجه خوفًا من المفاجأة.

أفاق من تفكيره، وجدها تسأله:

– كيَّفَ أتيت إلى هنا؟

عندها أخرج الكتاب، فشهقت شَهقة قَوية، وطوحت كتابها بعيدًا، وخَطَفَتْ كتابه من يده وراحت تقلب الصفحات بنهم للبحث عن صفحة العودة، وهو يراقب ملامح وجهها الجعد مرتجفًا خائفًا من عدم وجود صفحة العودة، وفجأة نظرت إليه واحتضنت رأسه وأخذت تقَبِّله فتخلص من ذراعيها، وسألها مرتعدًا:

– هل سنعود؟

رَفَعَتْ الكتاب أمامه، فرأى كف العودة فخطفه من يدها، وقال مبتسمًا:

– إذًا لنستعد لرحلة العودة إلى الأرض؟

ونزل أمامها، ونزلت خلفه، وعندما استدار والتفت وجدها قد استقامت، وتمشي على رجليها كباقي البشر، ضحك متمتمًا:

– سبحان الله؛ الأمل كان علاجها.

وصلا لمصطبة صخرية، تربع سالم فوقها؛ فتح الكتاب ووضعه بحجره، واحتضنته العجوز من الخلف، سألها:

– كم عمركِ؟ وكم مكثتِ هنا؟

– في أي الأعوام نحن؟

–ألفين وستة عشر.

– أَنْتَ تمزح؟

– لا أَمْزَح صدقيني.

– إن كنت لا تمزح فعمري الآن أكثر من مائتي سنة، وقضيت بالمريخ أكثر من مائة سنة.

جحظت عينا سالم، قال في نفسه: «لقد فقدت المرأة عقلها». قال لها:

– أَنَا أَمْزَحْ معك الحقيقة، نحن في سنة تسعمائة وألف.

وضحكا الاثنين، ثم وضع سالم كفه فوق كف العودة بالكتاب، ووضعت هي كفها فوق كف سالم، وفجأة؛ أظلمت من حولهما، و تيبسا بأجسادهما، وعادا أدراجهما إلى الأرض، يجتازان الفضاء في لحظات، وعندما أفاق سالم وجد نفسه بغرفته، ولم تشرق الشمس بعد.

فكر في أنه قد نسي أن يسأل العجوز الإنجليزية عن اسمها؛ استدار ليتفحصها، وجدها جثة هامدة باردة، لا نبض بها ولا أنفاس، ووجها يشع بزرقة الموت، قال:

– مكتوب لكِ أن تدفني بالأرض.

أَخَذَ فأسًا، وحَمَلَها على كتفه إلى المقابر فهي قريبة من داره، ولم يذهب إلى الزريبة لأنه موقن بأن الحمار يغط في نوم عميق.

حَفَرَ لها قبرًا، ووضع به الجثة، ووضع كتاب السحر فوق صدرها، وواراهما الثرى، وقفل عائدًا إلى البيت قبل أن تشرق الشمس.

دخل غرفته، طرح جسمه فوق السرير، أغمض عينيه، زفر بارتياح، فجأة؛ شعر بشيء صلب أسفل ظهره، قام لينظر، وجده كتاب السحر؛ جَحَظَتْ عيناه.

فصول الكتاب

وفاء الجن 5

القرية قبل عامين..... 7

1..... 9

2..... 18

3..... 32

4..... 47

5..... 57

6..... 64

7..... 72

8..... 82

9..... 90

قصص أخرى..... 93

الغراب المسحور..... 95

المسخوطة..... 103

حبيسة المريخ..... 111